الأصوات اللغوية

تأليف

دكتور ابراهيم أنيس

بكالوريوس B. A. ودكتوراه PH. D.

(من جامعة لندن)

أستاذ بكلية دار العلوم جامعة فؤاد الأول

الطبعة الثانية سنة ١٩٥٠

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

مطبعة لجنة البيان العربي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان من خص الإنسان بالنطق المبين ، فسما به فوق المخلوقات الأخر ، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالعربية . وبعد :

فهذا كتاب فى دراسة قد تبدو حديثة فى بلادنا ؛ ولكنها ازدهرت وتأصلت بين من يعنون بالبحث اللغوى فى أوربا . وقد يحب بعض القراء أن يسمى ما تعرضت له فى هذا الكتاب بالبحث « الفوناتيكى » Phonetics ؛ ولكنى أوثر أن أنسبه إلى فرع « الفونولوجى » Phonology ، لأن « الفوناتيك » يعنى بالأصوات الإنسانية شرحاً وتحليلا ، ويجرى عليها التجارب دون نظر خاص إلى ما تنتمى إليه من لغات ، وإلى أثر تلك الأصوات فى اللغة من الناحية العملية . فهو لهذا عالمى ، كونت له هيئة عالمية تكشف لنا كل يوم عن أصوات إنسانية كانت مجهولة . أما فرع « الفنولوجى » فيعنى كل العناية بأثر الصوت اللغوى فى تركيب الكلام نحوه وصرفه ، ولهذا يمكن أن يطلق عليه علم الأصوات الذى يخدم بنية الكلمات وتركيب الجمل فى لغة من اللغات .

على أن الفرعين قد يلتقيان فى ميدان واحد ، ويشتركان معاً فى البحث فى عدة نقط . فحدودهما متشابكة ، يصعب تحديد الفواصـــل بينهما تحديداً دقيقاً .

ومن المحدثين من يميز بين الإصطلاحين تميزاً آخر فيجعل الأول منهما خاصاً بالناحية الوصفية ، والثانى بالناحية التاريخية وما اشتملت عليه من تطورات . وهناك فريق ثالث على رأسهم De Saussure يعكسون التسمية ويجعلون الاصطلاح الأول للبحث التاريخى والآخر للبحث الوصفى .

وقد كان للقدماء من علماء العربية بحوث فى الأصوات اللغوية شهد المحدثون أنها جليلة القدر بالنسبة إلى عصورهم . وقد أرادوا بها خدمة اللغة العربية والنطق العربى ، ولاسيما فى الترتيل القرآنى . ولقرب هؤلاء العلماء من عصور النهضة العربية واتصالهم بفصحاء العرب كانوا مرهفى الحس ، دقيق الملاحظة . فوصفوا لنا الصوت العربى وصفاً أثار دهشة المستشرقين وإعجابهم . غير أن المتأخرين منهم قد اكتفوا بترديد كلمات المتقدمين دون فهم لها أو نظر فيها ؛ فقد أصاب بعض هــذه الأصوات تطور لم يلحظوه ولم يفطنوا إليه . ووقفوا بهذا حيث وقف القدماء ، لم يستكملوا تلك البحوث القيمة ، بل رووها مبتورة حيناً ، وممسوخة حيناً آخر .

فلما كان العصر الحديث واتصلت ثقافتنا بثقافات أوربا ، ورأينا لعلماء اللغات فيها تلك التجارب الصوتية التى يخيل للناظر إليها أنها نوع من السحر ، بدأ بعض أعضاء البعثات اللغوية يعنون بهذا الأمر ، ويحاولون الانتفاع به فى خدمة اللغة العربية .

وكتابى هذا وإن كان الأول من نوعه فى اللغة العربية ، لا أدعى له الـكمال فى كل نواحيه ، وإنما أعده مجهوداً متواضعاً أبغى به نشر طرف من هذه الثقافة اللغوية بين من يعنون بالبحث اللغوى فى مصر ، راجياً أن ينتفع به طلاب الجامعات المصرية والمعاهد العالية فى دراساتهم اللغوية ؟

ابراهيم أنيس

الفصل الأول

(١)

ظاهرة الصوت

الصوت ظاهرة طبيعية ندرك أثرها قبل أن ندرك كنهها . فقد أثبت علماء الصوت بتجارب لا يتطرق إليها الشك أن كل صوت مسموع يستلزم وجود جسم يهتز ؛ على أن تلك الهزات قد لا تدرك بالعين فى بعض الحالات . كما أثبتوا أن هزات مصدر الصوت تنتقل فى وسط غازى أو سائل أو صلب حتى تصل إلى الأذن الانسانية .

والهواء هو الوسط الذى تنتقل خلاله الهزات فى معظم الحالات ، فخلاله تنتقل الهزات من مصدر الصوت فى شكل موجات حتى تصل إلى الأذن . وسرعة الصوت كما قدرها العلماء هى حوالى ٣٣٢ متراً فى الثانية ، أى أنها ضعف ما تقطعه أسرع طائرة عرفت حتى الآن . ويطمح علماء الطيران فى أن يصلوا بسرعة طائراتهم إلى مثل سرعة الصوت .

وتتوقف شدة الصوت أو ارتفاعه على بعد الأذن من مصدر الصوت ، فعلى قدر قرب الأذن من ذلك المصدر يكون وضوح الصوت وشدته . كما تتوقف شدة الصوت على سعة الاهتزازة ، وهى المسافة المحصورة بين الوضع الأصلى للجسم المهتز وهو فى حالة السكون وأقصى نقطة يصل إليها الجسم فى

هذه الاهتزازة . فعلى قدر اتساع هذه المسافة يكون علو الصوت ووضوحه . هذا ويساعد على شدة الصوت أو علوه اتصال مصدره بأجسام رنانة ، ولهذا شدت الأوتار الموسيقية على ألواح أو صناديق رنانة ليقوى الصوت ويتضح . أما درجة الصوت Pitch فهى المقياس الموسيقى الذى يدركه من له إلمام بفن الموسيقى ، ويقسم السلم الموسيقى إلى درجات هى ما يرمز لها فى الموسيقى الأوربية بالرموز .

do. re, mi, fa, sol, la, si,

سى لا صول فا مى رى دو

أما سلم الموسيقى الشرقية فلا يزال موضع خلاف بين موسيقيينا . والصوت قد يكون عميقاً وهو الذى يسميه الموسيقيون بالقرار ، كما قد يكون رفيعاً حاداً . وعلى قدر انتقال الصوت فى السلم الأوربى من do إلى si يقل عمقه أو تزداد حدته فتختلف درجته تبعاً لهذا . وصاحب الأذن الموسيقية يستطيع بسهولة التفرقة بين شدة الصوت ودرجته . ويمكن المرء أن يلحظ هذه التفرقة حين يكون أمام آلة « الراديو » يستمع إلى أحد المغنين يغنى لحناً ذا درجات موسيقية خاصة ، فاذا أدار المستمع زراً خاصاً ارتفع الصوت أو انخفض أى تغيرت شدة الصوت دون أن يؤثر هذا فى درجات الصوت للحن ؛ فهى هى لم يصبها أى تغير .

ودرجة الصوت كما برهن علماء الأصوات تتوقف على عدد الاهتزازات فى الثانية ؛ فإذا زادت الاهتزازات أو الذبذبات على عدد خاص ازداد الصوت حدة ؛ وبذا تختلف درجته . وعدد الاهتزازات فى الثانية يسمى فى

الاصطلاح الصوتى التردد . فالصوت العميق عدد اهتزازاته فى الثانية أقل من الصوت الحاد .

أما نوع الصوت فهو تلك الصفة الخاصة التى تميز صوتاً من صوت وإن اتحدا فى الدرجة والشدة . وهكذا نستطيع أن نميز صوت الكمنجة من العود رغم احتمال اتحادهما فى الدرجة والشدة . وتلك هى الصفة التى تميز صوتاً إنسانياً من صوت آخر . وكثير من الناس يستطيعون التمييز بين أصوات أصدقائهم فى « التليفون » بمجرد نطقهم ببضع كلمات ، ويكيف نوع الصوت أو صفته عدة عوامل سنعرض لها فيما بعد .

(٢)

الصوت الإنسانى

هو ككل الأصوات ينشأ من ذبذبات مصدرها عند الإنسان الحنجرة . فعند اندفاع النفس من الرئتين يمر بالحنجرة فيحدث تلك الاهتزازات التى بعد صدورها من الفم أو الأنف ، تنتقل خلال الهواء الخارجى على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن . ولكن الصوت الإنسانى معقد ؛ إذ يتركب من أنواع مختلفة فى الشدة ومن درجات صوتية متباينة ، كما أن لكل إنسان صفة صوتية خاصة تميز صوته من صوت غيره من الناس . فليس صوت الإنسان فى أثناء حديثه ذا شدة واحدة أو درجة واحدة ، بل هو متعدد الشدة والدرجة ، وهو مع هذا أيضاً ذو صفة خاصة تميزه من غيره من أصوات الناس فالإنسان حين يتكلم تتغير درجات صوته عند كل مقطع تقريباً ؛ فالبون بين

درجات الصوت عند الغناء أبعد منه عند الكلام . على أنه فى الغناء الأوربى أبعد منه فى الغناء العربى .

ومصدر الصوت الإنسانى فى معظم الأحيان هو الحنجرة أو بعبارة أدق الوتران الصوتيان فيها . فاهتزازات هذين الوترين هى التى تنطلق من الفم أو الأنف ثم تنتقل خلال الهواء الخارجى .

وتتوقف درجة صوت المرء على سنه وجنسه ، فالأطفال والنساء أحدّ أصواتاً من الرجال . وذلك لأن الوترين الصوتيين فى الأطفال والنساء أقصر وأقل ضخامة ، ويؤدى هذا إلى زيادة فى سرعتهما وعدد ذبذباتهما فى الثانية . والطفل حين يصل إلى سن البلوغ يتضخم وتراه الصوتيان فجأة كما يطولان . ويترتب على هذا عمق فى صوته يجعله أقرب إلى الرجال منه إلى النساء ؛ لأن عدد ذبذبات الوترين الطويلين الضخمين أقل كثيراً . وضخام الأجسام من الناس هم عادة عميقو الأصوات . هذا وصوت الرجل عرضة للتغير فى درجته بين الخمسين والستين من عمره .

وقد لاحظ علماء التشريح أن الوترين الصوتيين فى الخصىّ أقصر وأقل ضخامة ، مما أدى إلى تلك الظاهرة الشائعة بين الخصيان ، وهى أن أصواتهم أشبه بأصوات النساء ، لأن عملية الخصاء قبل سن البلوغ تضمر الوترين الصوتيين .

ويتكلم الإنسان فتختلف درجة صوته عند معظم المقاطع ؛ ولكن يندر أن يكون تغيير درجة الصوت فى أثناء الكلام فجائياً ، بخلاف الغناء .

وطول الوتر الصوتى فى الإنسان البالغ حوالى ٢٣ مليمتراً ، ويمتد أحياناً

إلى ٢٧ مليمتراً . وعدد الذبذبات فى الحنجرة كما قدرها جمهور العلماء يتراوح بين ٦٠ و ١٣٠٠ فى الثانية .

ومن الحقائق العلمية التى تدعو إلى الدهشة والعجب أن علماء التشريح لم يلحظوا أى فرق مادى بين حناجر النوع الإنسانى . فحنجرة الإنسان ذى الصوت الرخيم الذى يسحر الألباب والعقول لا تكاد تختلف عن حنجرة فلاح بسيط من الناحية التشريحية . فليس فى حنجرة المطرب أى عنصر مادى تمتاز به على حنجرة غيره من الناس ؛ وإنما الفرق فى الموهبة التى اختص بها وهى سيطرته على عملية التنفس ، فهو أقدر من غيره على تنظيم تنفسه والسيطرة على الهواء المندفع من الرئتين ، والقدرة على تكييفه ، وإخضاعه لنظام خاص فى جريانه من الرئتين ، حتى يصدر من الفم أو الأنف . هذا هو كل شىء فى الغناء أو ما يسمى جمال الصوت . وقليل من الناس يستطيعون السيطرة على تنفسهم وإخضاعه لإرادتهم كما يفعل المغنون . فالمغنى يستطيع بعد شىء من المران طبعاً أن يملك زمام تنفسه وأن يحدد عدد ذبذبات الوترين الصوتيين كما يشاء ؛ وبذلك ينوع فى درجات صوته كما يوحى إليه فنه . ومن تلك الدرجات الصوتية المتباينة يكوّن مجموعة منسجمة من الأصوات ، هى التى اصطلحنا على تسميتها بالغناء الجميل . وعنصر المران ضرورى للمغنى ، ولكن الاستعداد الشخصى هو العنصر الأساسى فى جمال الصوت . وتسرف الكثرة الغالبة من الناس فى عملية التنفس أو لا تحسن استغلالها ، فيضيع النفس سدى ولا تنتظم له حال . ولا غرابة فى هذا فليس كل الناس مغنين أو أصحاب أصوات جميلة منسجمة .

ويمكن أن نلخص العوامل التى تؤثر فى درجات الصوت الإنساني فيما يلى : —

(أ) السيطرة على الهواء المندفع من الرئتين وتحديد نسبة ما يندفع منهما من النفس ، وتنظيم هذا حسب الإرادة .

(ب) مرونة عضلات الحنجرة ؛ فعلى قدر هذه المرونة تتوقف درجة الصوت ؛ فكلما ازدادت مرونة كثرة الذبذبات وازداد الصوت حدة .

(حـ) طول الوترين الصوتيين يؤثر فى درجة الصوت تأثيراً عكسياً ، بمعنى أنه كلما طال الوتران الصوتيان قلت الذبذبات ، وترتب على قلتها عمق الصوت ، حتى يصل فى بعض الحالات إلى ما يسميه الموسيقيون بالقرار .

(ء) ولكن نسبة شد الوترين تؤثر تأثيراً مطرداً فى درجة الصوت . فالصوت المنبعث من ذبذبة وترين مشدودين شداً محكماً يكون صوتاً حاداً كصوت المغنيات ، فى حين أن غلظ الوترين فى الرجال يقلل من نسبة هذا التوتر ، مما يجعل درجة الصوت عند الرجال عميقة لأن عدد الذبذبات أقل .

أما شدة الصوت الإنسانى فتتوقف إلى حد كبير على سعة الرئتين ونسبة ضغط الهواء المندفع منهما . هذا إلى توقفها أيضاً على تلك الفراغات المضخمة للصوت التي يمر خلالها الهواء بعد الحنجرة . ففراغ الحلق وفراغ الفم والفراغ الأنفى كلها تستغل فى تضخيم الصوت ومنحه صفته الخاصة به التي تميزه من غيره من الأصوات . فهى بمثابة تلك الصناديق المجوفة التى تشد عليها أوتار الكمنجة أو العود . لأن أصوات الحنجرة وحدها ضعيفة ، ولكنها تقوى بمرورها فى تلك الفراغات الرنانة . واختلاف حجم هذه الفراغات بين الناس

يجعل أصواتهم المختلفة متميزة . رغم أن تلك الفراغات لا تكاد تؤثر فى فى درجات أصواتهم ، فقد تكون متحدة الدرجات ، أى أن عدد الذبذبات فى الحنجرة واحدة ؛ ولكن مرور تلك الذبذبات خلال الفراغات يكسبها لوناً خاصاً بها يساعدنا على تمييز أصوات الأصدقاء من غيرها .

(٣)

كيف بدأ الصوت اللغوى

هذا بحث طويل اضطربت فيه أقوال القدماء والمحدثين ولا نحب أن نعرض له هنا بإسهاب ، ولكننا سنكتفى بالمرور به مراً سريعاً تاركين بحث النظريات المختلفة بصدد نشأة الكلام لمجال آخر .

لقد أجمع المحدثون(*) على أن مرحلة الكلام عند الإنسان متأخرة إذا قيست بتطوره فوق سطح البسيطة . وهم يرجحون أن الإنسان الأول قد حاول النطق فى عصوره الحجرية ، وكان الدافع الأول لهذا النطق مجرد المصادفة . فقد نمت فيه قوة السمع قبل قوة النطق ، فسمع الأصوات الطبيعية حوله ، ولكنه لم يقلدها فى هذه المرحلة ؛ لأن هذا يفترض له حينئذ قدرة عقلية لم يستطع المحدثون أن يتصوروها للإنسان فى هذه المرحلة من حياته . فتقليده للأصوات الطبيعية حوله مرحلة متأخرة ، جاءت بعد أن حاول هو النطق أولا : ولم يكن لنطقه الأول غرض خاص يرمى إليه بل كان عفواً

(*) انظر مقالا للمؤلف حول نشأة الكلام فى صحيفة دار العلوم العدد الرابع — السنة التاسعة .

أو إن شئت فقل غريزياً . وليس يعنينا أن نقف هنا طويلا ؛ وإنما الذى نحاول أن نتصوره ، هو إنسان يستغل أصوات نفسه وأصوات المظاهر الطبيعية فى حاجاته الأولية ، كالجاذبية الجنسية إلى أليفه ، أو محاولة صد الأعداء عنه ، أو حفظ النوع . وحفظ النوع يدعو إلى تكوين حياة اجتماعية يتصل فيها النوع الإنسانى بعضه ببعض ، كما يدعو إلى الالتجاء إلى كل الوسائل لحماية النسل وبناء الوطن . فالحياة الاجتماعية منذ نشأة الإنسان هى التى ساعدت إلى حد كبير على نمو لغته . ولكن العامل الأكبر لرقى هذه اللغة وبلوغها مابلغت ، هو ما امتاز به الإنسان من ذكاء لم يشركه فيه غيره من الحيوانات . فكثير من الحيوانات تعيش حياة اجتماعية ؛ ولها من الحناجر ما تستطيع به التصويت بأنواع متباينة من الأصوات ، ولكنها لم تستطع أن تنطق كما نطق الإنسان ، لأنها لم توهب القدرة العقلية الكافية لتكون من تلك الأصوات لغة لها . فلا غرابة إذن أن سمى القدماء الإنسان حيواناً ناطقاً ، مريدين بهذا أنه حيوان ذكى ذو قوة عقلية خارقة . وقد أظهر التشريح كبراً فى حجم المخ الانسانى ولا سيما الجزء الخاص بالكلام منه . وقد ساعده ذكاؤه على ترجمة الأصوات وتفسيرها ثم تقليدها . وأدى كل هذا آخر الأمر إلى تكون لغته ذات القواعد والأصول .

والغناء الإنسانى متأخر الوجود عن الكلام . وربما كان الغناء أول الأمر لمجرد الجاذبية الجنسية ولفت نظر الأليفة . ثم تطور فأصبح لإشباع رغبة فنية فى الإنسان . بل حتى الحيوانات التى تغنى يندر ألا يكون لها غرض خاص من غنائها . فالبلبل الذى يصدح فى الغابات يرمى بغنائه إلى اجتذاب

أليفه . ولا نكاد نعثر فى عالم الحيوان على واحد منها يغنى لمجرد إشباع رغبته فى الغناء ، دون أن يكون له غرض خاص يرمى إليه . لأن حياة الحيوان شاقة مفعمة بالمآسى والجهاد فليس لديه فرصة فراغ يقضيها فى مجرد لهو أو طرب . وربما كان الإنسان وحده دون سائر الحيوانات هو الذى يستغل اللسان والحنك والشفتين فى تكييف صوته على النحو الذى نألفه .

(٤)

أهمية السمع فى إدراك الصوت اللغوى

تصدر الأصوات من الإنسان فتنتقل أولا خلال الهواء الخارجى على شكل موجات حتى تصل إلى الأذن الإنسانية ، ومنها إلى المخ فتترجم هناك وتفسر . فالسمع هو الحاسة الطبيعية التى لا بد منها لفهم تلك الأصوات . ولقد سبق السمع فى نموه ونشأته نمو الكلام والنطق ، والسمع أقوى من الحواس الأخرى وأعم نفعاً للانسان من النظر مثلا فى تمييز المرئيات ، ومن الشم فى التعرف على الروائح . ومزايا السمع يمكن إدراكها مما يلى :

١ — إن إدراك الأصوات اللغوية عن طريق السمع يدع سائر الأعضاء حرة طليقة ، فيمكن الانتفاع بها فى ضروريات الحياة الأخرى . فالتفاهم بالأشارة يحرم الإنسان من يديه وأطرافه فلا تستغل فى وظائفها الأصلية التى خلقت لها ، هذا إلى أن الالتجاء إلى السمع يصرف النظر إلى وظيفته الأصلية دون حاجة إلى التعبير بالنظر عما يختلج فى النفس .

٢ — والسمع يدرك الأصوات من مسافة قد لا يستطيع النظر عندها

إدراكا . فحين تحول موانع من جبال ووديان لايستطيع المرء أن يستغل حاستى النظر والشم ولكنه يدرك رغم هذا الأصوات واتجاهاتها . هذا إلى أن الصوت قد ينتقل ضد التيارات الهوائية بخلاف الشم الذى تذهب به الرياح أينما اتجهت .

٣ — والسمع حاسة تستغل ليلا ونهاراً ، وفى الظلام والنور في حين أن المرئيات لايمكن إدراكها إلا فى النور .

٤ — وأخيراً وليس آخراً استطاع الإنسان أن يدرك عن طريق تلك المقاطع الصوتية التي نسميها كلاماً ، أفكاراً أرق وأسمى مما قد يدركه بالنظر ، الذى مهما عبر فتعبيره محدود المعانى غامضها ، اللهم إلا عند الشعراء ذوى الخيال الخصب الذين يستلهمون أفكاراً سامية من نظرات الحسان . فاختلاف درجات الصوت وتعددها ، وكذلك اختلاف شدته ونوعه ، كل هذا ساعد على تكون النطق الإنسانى الذى نهض به فوق المخلوقات . وقد عبر عن هذا Romanes بكلمته المأثورة « لو لم يوهب الإنسان مقدرة النطق والإفصاح عما يخالج نفسه لكان من المحتمل ألا ينهض فوق أحط أنواع القردة » .

وليس علينا لندرك فضل السمع إلا أن نقارن بين ما يمكن أن يصل إليه إنسان فقد بصره من رقى عقلى و بين آخر أصم . فالنبوغ كثير الاحتمال بين العمى ، فى حين أنه نادر بين الصم وإن كانوا مبصرين .

وربما لم يستغل الإنسان حاسة السمع الاستغلال الكافى فى العصور القديمة ، ولكنه الآن ، و بعد اكتشاف الراديو ، أمكن أن يصبح السمع وسيلة من أهم وسائل التثقيف الشعبي والمتع النفسية ؛ بل إن ما أصابه الإنسان الحديث

من تقدم فى المخترعات التى يتمتع بها السمع الإنسانى لأجل من تقدمه فى أية ناحية أخرى .

والأصل فى الفهم والإفهام أن يكون عن طريق تلك الوسيلة الطبيعية ، التى هى عماد كل نمو عقلى وأساس كل ثقافة ذهنية ، تلك الوسيلة التى أشار إليها ابن خلدون فى مقدمته بكلمته المشهورة حين قال « السمع أبو الملكات اللسانية » . وليست الكتابة إلا وسيلة ناقصة لتصوير اللغات ، فيها من الرموز مالا حاجة إليه ، كما ينقصها كثير من الرموز حتى يمكن أن يكون تصويرها للغة صحيحاً دقيقاً ، ثم هى مع هذا حديثة النشأة إذا قيست بنشأة النطق الإنسانى ، صنعها الإنسان ولم يتقن صنعها . ولا تزال تلك الرموز الكتابية بمثابة الجسد الهامد حتى يبعث فيها النطق حياة . ويتنبأ لنا العصر الحديث بمستقبل تفقد فيه الكتابة قدرها ، ويصبح فيه التفاهم بين من بعدت بينهما الشقة عن طريق التسجيل الصوتى ، نملى على آلة التسجيل مانشاء فوق أسلاك أو أشرطة نبعث بها إلى من نحب ، فإذا وضعها فى آلة الاستقبال وأدار الآلة سمع نفس الصوت ونفس الكلمات ونفس المقاطع التى أملاها المراسل ، دون تحريف أو تصحيف ودون تزوير أو خداع كأنما هو يجالسه ويتحدث إليه . وليس مثل هذا المستقبل فيما أعتقد ، ببعيد .

وأداة السمع الطبيعية هى الأذن . وهى معقدة التركيب يقسمها علماء التشريح إلى ثلاثة أقسام : الأذن الخارجية ، وتتركب من صيوان الأذن وصماخها . وتنتهى الأذن الخارجية بما يسمى عادة بطبلة الأذن ، ثم يلى هذا الأذن الوسطى التى فيها عظيات ثلاث صغيرة تسمى عادة بالمطرقة والسندان والركاب .

أما الأذن الداخلية ففيها أعضاء السمع الحقيقية ، لانتشار ألياف العصب السمعى بأجزائها. وفى الأذن الداخلية السائل الذى يسمى بالسائل التيهى ، وفيه تنغمس الأعصاب السمعية .



(شكل ١) أجزاء الأذن

فحين تحدث الأصوات تموجات فى الهواء الخارجى ، يستقبلها الصيوان ثم تمر فى القناة السمعية الخارجية إلى أن تصل إلى الغشاء الطبلى ، فيهتز اهتزازات مناسبة لتلك التموجات ، وتصل هذه الاهتزازات إلى الأذن الداخلية بواسطة العظيمات الثلاث ، ثم تسرى هذه الاهتزازات فى السائل التيهى ، وتحدث به تموجات مناسبة لها ، فتنبه أطراف الأعصاب المغموسة فيه ، وتنقل هذه الأعصاب ماتشعر به أطرافها إلى المراكز السمعية فى المخ ، وعند ذلك ندرك الأصوات المختلفة ونتعرف اتجاهاتها .

الفصل الثانى

(١)

أعضاء النطق

قبل أن نعرض لدراسة الأصوات اللغوية وما تتركب منه ، لابد من شرح أعضاء النطق وأجزائها المتباينة . وإن نظرة واحدة إلى الشكل الآتى لتوضح تلك الأعضاء .



(شكل ٢)

(ا) القصبة الهوائية . (ب) موضع الوترين الصوتيين .

(حـ) فتحة المزمار .　　　　　(ى) الحلق .

(هـ و ط) اللسان : أقصاه ووسطه وطرفه .

(م ع س) الحنك الأعلى : أقصاه ووسطه وأصول الثنايا .

(ى) الأسنان عليا وسفلى . (ص) الشفتان : عليا وسفلى .

١ — القصبة الهوائية :

وفيها يتخذ النفس مجراه قبل اندفاعه إلى الحنجرة . وقد كان يظن قديماً أن لا أثر لها فى الصوت اللغوى ، بل هى مجرد طريق للتنفس ؛ ولكن البحوث الحديثة برهنت على أنها تستغل فى بعض الأحيان كفراغ رنان ذى أثر بين فى درجة الصوت ، ولا سيما إذا كان الصوت عميقاً .

٢ — الحنجرة :

لقد عدّ القدماء والمحدثون هذا العضو الأداة الأساسية للصوت الإنسانى ، لأنها تشتمل على الوترين الصوتيين اللذين يهتزان مع معظم الأصوات هزات منتظمة أمكن عدها فى الثانية ، وترتب على معرفة عدد تلك الهزات الحكم على درجة الصوت .

والحنجرة عبارة عن حجرة متسعة نوعاً ما ومكونة من ثلاثة غضاريف ، الأول أو العلوى منها ناقص الاستدارة من خلف وعريض بارز من الأمام ، ويعرف الجزء البارز منه بتفاحة آدم . أما الغضروف الثانى فهو كامل الاستدارة ؛ والثالث مكون من قطعتين موضوعتين فوق الغضروف الثانى من خلف .

والوتران الصوتيان هما رباطان مرنان يشبهان الشفتين ، يمتدان أفقياً من الخلف إلى الأمام ، حيث يلتقيان عند ذلك البروز الذى نسميه بتفاحة آدم . أما الفراغ الذى بين الوترين فيسمى بالمزمار . وفتحة المزمار تنقبض وتنبسط بنسب مختلفة مع الأصوات ، ويترتب على هذا اختلاف نسبة شد الوترين واستعدادهما للاهتزاز ؛ فكلما زاد توترهما زادت نسبة اهتزازهما فى الثانية ، فتختلف تبعاً لهذا درجة الصوت . وللمزمار غطاء نسميه لسان المزمار ، وظيفته الأصلية أن يكون بمثابة صمام يحمى طريق التنفس فى أثناء عملية البلع .

٣ — الحلق :

هو الجزء الذى بين الحنجرة والفم . وهو فضلا عن أنه مخرج لأصوات لغوية خاصة ، يستغل بصفة عامة كفراغ رنان يضخم بعض الأصوات بعد صدورها من الحنجرة .

٤ — اللسان :

تعود القدماء أن ينسبوا النطق إلى هذا العضو بصفة خاصة . ولا غرابة فى هذا ، فاللسان عضو هام فى عملية النطق ، لأنه مرن وكثير الحركة فى الفم عند النطق ؛ فهو ينتقل من وضع إلى آخر فيكيف الصوت اللغوى حسب أوضاعه المختلفة . وقد قسمه علماء الأصوات إلى ثلاثة أقسام : الأول منها أول اللسان بما فى ذلك طرفه ، والثانى وسطه ، والثالث أقصاه .

٥ — الحنك الأعلى :

هو العضو الذى يتصل به اللسان فى أوضاعه المختلفة . ومع كل وضع من

أوضاع اللسان بالنسبة لجزء من أجزاء الحنك الأعلى تتكون مخارج كثير من الأصوات . وينقسم الحنك الأعلى إلى أقسام عدة هى : الأسنان ، ثم أصولها ، ثم وسط الحنك أو الجزء الصلب منه ، ثم أقصى الحنك أو الجزء اللين منه ، ثم اللهاة .

٦ — الفراغ الأنفى :

وهو العضو الذى يندفع خلاله النفَس مع بعض الأصوات كالميم والنون . هذا إلى أنه يستغل كفراغ رنان يضخم بعض الأصوات حين النطق .

٧ — الشفتان :

للشفتين وظيفة ملحوظة مع بعض الأصوات ؛ فهما تنفرجان حيناً وتستديران أو تنطبقان حيناً آخر ، وهكذا نلحظ تغيراً فى شكل الشفتين أثناء النطق . وتختلف عادات المتكلمين فى استغلال حركة الشفتين والانتفاع بها . فمن الشعوب من تتميز عادات النطق لديهم بكثرة الحركة فى الشفتين ، ومنهم من يقتصدون فى هذا ، كالعرب بوجه عام ، أو الناطقين باللغة العربية .

تلك هى أعضاء النطق التى يشار إليها دائماً فى دراسة الأصوات وعملية النطق . على أنه من الواجب أن يضاف إليها عضو آخر لا يقل أهمية إن لم يكن أكثر منها أهمية وهو الرئتان . فبغير الرئتين لا تكون عملية التنفس وبغير التنفس لا يكون الكلام بل لا تكون الحياة نفسها . فبعض الأعضاء التى سبقت الإشارة إليها قد يصيبه اضطراب أو خلل ، ومع هذا فتظل عملية النطق تؤدى فى صورة من الصور ؛ ولكن الرئتين لا يمكن الاستغناء عنهما فى النطق .

وعملية التنفس عادة تتكون من شهيق وزفير ، أى إدخال الهواء وإخراجه . والمرء حين يكون صحيحاً معافى لا يشعر بهذه العملية ، كما أنه لا يسمع لها صوتاً ؛ لأن مجرى الهواء معها يكون خالياً من أية عقبة تعترضه . فإذا كان المرء مصاباً بزكام أو برد فقد يسمع خشخشة لتنفسه . وكذلك قد يحدث للنائم أن أقصى حنكه يصيبه نوع من التراخى ، يترتب عليه ذلك الصوت الذى نسميه شخيراً. وهذا النوع من الأصوات ليس من موضوع بحثنا فى قليل أو كثير . ولكنا نبغى البحث فى الأصوات المقصودة التى لنا إرادة فى صدورها ، وهى التى تتكون من تغيير وضع أحد تلك الأعضاء الآنفة الذكر فى أثناء مرور النفس إلى خارج الفم .

(٢)

جهر الصوت وهمسه

إن انقباض فتحة المزمار وانبساطها عملية يقوم بها المرء فى أثناء حديثه ، دون أن يشعر بها فى معظم الأحيان . وحين تنقبض فتحة المزمار يقترب الوتران الصوتيان أحدهما من الآخر فتضيق فتحة المزمار ، ولكنها تظل تسمح بمرور النفس خلالها . فإذا اندفع الهواء خلال الوترين وهما فى هذا الوضع يهتزان اهتزازاً منتظما ، ويحدثان صوتاً موسيقياً تختلف درجته حسب عدد هذه الهزات أو الذبذبات فى الثانية ، كما تختلف شدته أو علوه حسب سعة الاهتزازة الواحدة . وعلماء الأصوات اللغوية يسمون هذه العملية بجهر الصوت . والأصوات اللغوية التى تصدر بهذه الطريقة أى بطريقة ذبذبة الوترين الصوتيين فى الحنجرة

تسمى أصواتاً مجهورة . فالصوت المجهور هو الذى يهتز معه الوتران الصوتيان .

ولاختبار جهر الصوت يمكن أن تجرى إحـدى التجارب الآتية :

ا — حين نضع الأصبع فوق تفاحة آدم ثم ننطق بصوت من الأصوات وحده مستقلا عن غيره من الأصوات . ولا يتأتى هذا إلا بأن نشكل الصوت موضع التجربة بذلك الرمز الذى يسمى السكون مثل « بْ » . ويجب الاحتراز من الاتيان قبله بألف وصل كما كان يفعل القدماء من علماء الأصوات ، لأن الصوت حينئذ لا يتحقق فيه الاستقلال الذى هو أساس التجربة الصحيحة . فإذا نطقنا بالصوت وحـده وكان من المجهورات نشعر باهتزازات الوترين الصوتيين شعوراً لا يحتمل الشك .

ب — وكذلك حين نضع أصابعنا فى آذاننا ثم ننطق بنفس الصوت وهو وحده مستقلا عن غيره نحس برنة الصوت فى رؤوسنا .

حـ — والتجربة الثالثة هى أن يضع المرء كفه فوق جبهته فى أثناء نطقه بالصوت موضع الاختبار فيحس برنين الصوت ، وذلك الرنين هو أثر ذبذبة الوترين الصوتيين .

وعكس الجهر فى الاصطلاح الصوتى هو الهمس . فالصوت المهموس هو الذى لا يهتز معه الوتران الصوتيان ولا يسمع لهما رنين حين النطق به . وليس معنى هذا أن ليس للنفس معه ذبذبات مطلقاً وإلا لم تدركه الأذن ، ولـكن المراد بهمس الصوت هو صمت الوترين الصوتيين معه ؛ رغم أن الهواء فى أثناء اندفاعه من الحلق أو الفم يحدث ذبذبات يحملها الهواء الخارجى إلى حاسة السمع فيدركها المرء من أجل هذا .

والأصوات الساكنة[1] Consonants المجهورة فى اللغة العربية كما تبرهن عليها التجارب الحديثة هى ثلاثة عشر : ب ج د ذ ر ز ض ظ ع غ ل م ن . « يضاف إليها كل أصوات اللين Vowels بما فيها الواو والياء » .

فى حين أن الأصوات المهموسة هى إثنا عشر : ت ث ح خ س ش ص ط ف ق ك ه .

وقد يخيل للمرء حين ينظر إلى عـدد كل من المجهورات والمهموسات أن نسبتهما متعادلة فى الـكلام ، ولـكن الحقيقة غير ذلك ، لأن العدد لا يعنينا بقدر ما يعنينا نسبة شيوع كل منها فى الكلام . فالكثرة الغالبة من الأصوات اللغوية مجهورة . ومن الطبيعى أن تكون كذلك وإلا فقدت اللغة عنصرها الموسيقى ورنينها الخاص الذى نميز به الـكلام من الصمت والجهر من الهمس والإسرار . فالحنجرة هى أداة الصوت الأساسية وما يتكون فى غيرها من أصوات إنسانية لا يكون كلاماً مسموعاً واضحـاً ذا درجات موسيقية منسجمة يمكن ضبطها وقياسها .

وقد برهن الاستقراء على أن نسبة شيوع الأصوات المهموسة فى الـكلام لا تكاد تزيد على الخُمس أو عشرين فى المائة منه . فى حين أن أربعة أخماس الكلام تتكون من أصوات مجهورة .

ولم يقف النطق الإنسانى عند مرحلة الصياح بأصوات مجهورة أو مهموسة ذات درجات صوتية متباينة ، طوراً تعلو وطوراً تنخفض ، بل تطورت إلى كلمات مستقلة تكونت منها لغات ذات قواعد وأصول . وبذلك امتاز نطقه عن غناء

---

(١) انظر صفحة ٣٠ فى معنى الأصوات الساكنة وأصوات اللين .

الطيور وأصوات الحيوانات . وقد رمزت تلك الكلمات وهي مركبة فى صورة جمل إلى خير ما يدور فى الذهن الإنسانى من أفكار . فعبرت عن سريرة نفسه واستغلت كأداة للتفاهم بين أبناء جنسه ، يضمنها مكنون أفكاره خيرها وشرها أيضاً .

ولبعض الأصوات المجهورة فى اللغة العربية نظائر مهموسة مثل : د ذ ز ض ع غ التى نظائرها المهموسة على الترتيب الآتى هى : ت ث س ط ح خ . ومن الأصوات ماهو مجهور ولا مهموس[1] له فى العربية الفصيحة مثل ب ج ر ظ ل م ن . ومنها ماهو مهموس ولا مجهور له : مثل ش ص ف ق ك ه . واختلاف الأوضاع التى تتخذها أعضاء النطق يولد أنواعاً لاحصر لها من الأصوات اللغوية بعضها شديد والآخر رخو .

(٣)

شدة الصوت ورخاوته

تصور معى قناة صغيرة تنحدر فيها المياه مسافة ما قبل أن تصب مياهها فى بحيرة أو بركة ، وتصور أن مجرى هذه القناة يختلف فى طبيعة أرضه ، فهى فى مكان منه صخرية وفى آخر منه جيرية وفى ثالث أرض رخوة سهلة التآكل . ويترتب على مثل هذه الطبيعة الأرضية أن نرى المسافة بين شاطئ القناة تضيق حينا وذلك فى الجزء الصخرى وتتسع نوعا ما في الجزء

---

(١) قد توجد تلك النظائر المجهورة أو المهوسة فى اللهجات العربية الحديثة كما سنبين فيما بعد .

الجيرى ثم تزداد اتساعا فى الأرض الرخوة الطينية . فاذا تتبعنا مجرى القناة واستمعنا إلى الماء فى جريانه وجدنا له خريراً شديداً يكاد يكون صخباً حين يضيق مابين الشاطئين ، ثم لانكاد نسمع له خريراً حين تتسع المسافة بينهما ، بل ينساب انسياباً هادئا رفيقاً . فإذا تصورنا مع هذا أن مشروعا هندسياً قضى ببناء هويس فى جهة من جهات هذا المجرى يفتح ويغلق فى سرعة لانكاد تجاوز الثانية ، سمعنا للماء حينئذ أصواتا انفجارية متتابعة ، نتيجة انحباس الماء وانطلاقه فى فترات متوالية سريعة جداً .

ومثل مجرى الماء على هـذه الصورة الخيالية مثل مجرى النفس فى أثناء الكلام ، نراه يضيق حيناً فنسمع لمروره صفيراً ، ويتسع حينا فلا نكاد نسمع له حفيفاً ، وقد ينحبس فى مكان ما لحظة سريعة جداً بعدها ينطلق بقوة وهنا نلحظ له انفجاراً ودوياً . وهكذا تتكون ثلاثة أنواع من الأصوات : تلك التى يضيق معها مجرى النفس ، والتى يتسع لها المجرى ، وأخيراً تلك التى يحدث النفس معها انفجاراً أو ما يشبه الانفجار .

فحين تلتقى الشفتان التقاء محكما فينحبس عندهما مجرى النفس المندفع من الرئتين لحظة من الزمن بعدها تنفصل الشفتان انفصالا فجائياً ، يحدث النفس المنحبس صوتاً انفجارياً ، هو ما نرمز إليه فى الكتابة بحرف الباء . فهذا النوع من الأصوات الانفجارية هو ما اصطلح القدماء على تسميته بالصوت الشديد وما يسميه المحدثون انفجارياً « Plosive » .

وليس ضرورياً أن يكون انحباس النفس بالتقاء الشفتين ، بل قد ينحبس النفس فى مخارج عدة ، كأن يلتقى طرف اللسان بأصول الثنايا التقاء محكما فلا

يسمح بمرور الهواء لحظة من الزمن ، بعدها ينفصل العضوان فيندفع الهـواء المحبوس فجأة ويحدث صوتاً انفجارياً هو الذى نرمز إليـه بالدال أو التاء . وكذلك قد ينحبس الهواء بالتقاء أقصى اللسان بأقصى الحنك الأعلى ثم ينفصلان فجأة فيحدث الهواء المندفع صوتاً انفجارياً نرمز إليه بالكاف أو الجيم القاهرية .

فكل من هذه الأصوات « الباء الدال التاء الكاف والجيم القاهرية » صوت شديد . والصفة التى تجمع بينها هى انحباس الهواء معها عند مخرج كل منها انحباساً لا يسمح بمروره حتى ينفصل العضوان فجـأة ويحدث النفس صوتاً انفجارياً .

والأصوات العربية الشديدة كما تؤيدها التجارب الحديثة هى :

ب ت د ط ض ك ق « والجيم القاهرية » . أما الجيم العربية الفصيحة فيختلط صوتها الانفجارى بنوع من الحفيف يقلل من شدتها ، وهو ما يسميه القدماء بتعطيش الجيم .

أما الأصوات الرخوة فعند النطق بها لا ينحبس الهواء انحباساً محكماً ، وإنما يكتفى بأن يكون مجراه ضيقـاً . ويترتب على ضيق المجرى أن النفس فى أثناء مروره بمخرج الصوت يحدث نوعاً من الصفير أو الحفيف تختلف نسبته تبعاً لنسبة ضيق المجرى . فمثلا حين يتصل أول اللسان بأصول الثنايا بحيث يكون بينهما فراغ كاف لمرور الهواء نسمع ذلك الصفير الذى نعبر عنه بالسين أو الزاى . وكل صوت يصدر بهذه الوسيلة اصطلح القدماء على تسميته بالصوت الرخو . وهذه الأصوات يسميها المحدثون بالأصوات الاحتكاكية « Fricatives » . وعلى قدر نسبة الصفير فى الصوت تـكون رخاوته . وعلى

هذا فأكثر الأصوات رخاوة تلك سماها القدماء بأصوات الصفير وهى السين والزاى والصاد . وإذا اتسع الفراغ بين العضوين الملتقيين قلت نسبة الصفير ، وحينئذ يمكن تسميته حفيفاً بدلا من صفير . فعند النطق بالفاء مثلا تلتقى الشفة السفلى بالأسنان العليا تاركة بينهما فراغاً كافياً لمرور الهواء ، ويحدث الهواء حينئذ نوعاً من الحفيف يجعلنا نعدّ الفاء صوتاً رخواً أيضاً .

على أنه قد يتسع الفراغ مع بعض الأصوات اتساعاً كبيراً يسمح بمرور الهواء دون أن يحدث أى نوع من الصفير أو الحفيف . ويلاحظ هذا مع اللام والنون والميم والراء . ولعل هذا هو الذى دعا القدماء إلى تسمية هذه الأصوات الأربعة بالأصوات المتوسطة ، أى التى ليست انفجارية ولا احتكاكية .

والمحدثون من علماء الأصوات قد برهنوا بتجاربهم على أن هذه الأصوات الأربعة تكوّن مجموعة خاصة لا هى بالشديدة ولا الرخوة وسموها Liquids أى الأصوات المائعة . أما تسميتها بالأصوات المتوسطة فليست تعنى أكثر من أنها تخالف النوعين ، أى أنها ليست بالشديدة ولا الرخوة . وقد زاد القدماء على هذه الأصوات الأربعة صوت « العين » فعدوها صوتاً متوسطاً أيضاً . ولقلة التجارب الحديثة التى أجريت على أصوات الحلق لا نستطيع أن نرجح صحة هذه الصفة « للعين » بل نتركها لتجارب المستقبل لتبرهن عليها .

والأصوات الرخوة فى اللغة العربية كما تبرهن عليها التجارب الحديثة

هى « مرتبة حسب نسبة رخاوتها » : س[١] ز ص ش ذ ث ظ ف هـ ح خ غ .

ولبعض الأصوات الشديدة نظائر رخوة : فالدال صوت شديد نظيره الرخو الزاى أو الذال ، والتاء صوت شديد نظيره الرخو السين أو الثاء ، والباء صوت شديد نظيره الرخو الفاء ، والطاء صوت شديد نظيره الرخو الصاد ، والضاد صوت شديد نظيره الرخو تلك الظاء العامية الشائعة فى نقطنا الآن ، والكاف صوت شديد نظيره الرخو الشين ، والجيم القاهرية صوت شديد نظيره الرخو الجيم الشامية الشديدة التعطيش ، والقاف صوت شديد نظيره الرخو الخاء .

ومعنى التناظر هنا إما اتحاد المخرج بين كل من الصوتين المتناظرين أو قرب المخرجين أحدهما من الآخر . فمخرج الدال يكاد يكون هو مخرج الزاى ، ولا فرق بين الصوتين إلا فى أن النفس مع الدال ينحبس عند المخرج فيحدث انفجاراً ، وينطلق مع الزاى فيحدث صفيراً . انطق إذن بأى صوت شديد تجد النفس معه ينحبس فى مكان ما من المجرى ، فإذا استطعت السماح لهذا النفس المنحبس أن ينطلق ببطء ، نتج النظير الرخو . ولهذا لا ندهش حين نجد الكلمة الواحدة ينطق بها فى بعض اللهجات العربية القديمة مشتملة على صوت شديد ، وفى لهجات أخرى مشتملة على نظيره الرخو .

ويجب ألا نخلط بين مخرج الصوت ومجراه . فالمخرج نقطة معينة فى المجرى عندها يتكون الصوت ، وعندها يضيق المجرى أو يتسع حسب

(١) للياء والواو حكم خاص سنعرض له فيما بعد .

طبيعة الصوت وصفته ، أما المجرى فهو طريق النفس من الرئتين حتى يندفع خارج الفم أو الأنف .

(٤)

الأصوات الساكنة وأصوات اللين

لقد كان من نتائج تحليل المحدثين للأصوات اللغوية أن قسموها إلى قسمين رئيسيين سموا الأول منهما consonants والثانى Vowels، ويمكن تسمية القسم الأول بالأصوات الساكنة والثانى بأصوات اللين[١] .

وأساس هذا التقسيم عندهم هو الطبيعة الصوتية لكل من القسمين . فالصفة التى تجمع بين كل أصوات اللين « Vowels » هى أنه عند النطق بها يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم فى ممر ليس فيه حوائل تعترضه فتضيق مجراه كما يحدث مع الأصوات الرخوة ، أو تحبس النفَس ولاتسمح له بالمرور كما يحدث مع الأصوات الشديدة . فالصفة التى تختص بها أصوات اللين هى كيفية مرور الهواء فى الحلق والفم وخلو مجراه من حوائل وموانع .

فى حين أن الأصوات الساكنة إما ينحبس معها الهواء انحباساً محكماً فلا يسمح له بالمرور لحظة من الزمن يتبعها ذلك الصوت الانفجارى ، أو يضيق مجراه فيحدث النفَس نوعاً من الصفير أو الحفيف . وترتب على اختلاف كيفية

(١) يجب التمييز بين اصطلاحنا هنا وما عناه الصرفيون بحرف اللين فالبون كبير بين اصطلاحنا واصطلاحهم .

مرور الهواء فى حالتى النطق بالأصوات الساكنة وأصوات اللين أن المحدثين لاحظوا أن الأصوات الساكنة على العموم أقل وضوحاً فى السمع من أصوات اللين . فأصوات اللين تسمع من مسافة عندها قد تخفى الأصوات الساكنة أو يخطأ فى تمييزها . فالفتحة مثلا « وهى صوت لين قصير » تسمع بوضوح من مسافة أبعد كثيراً مما تسمع عندها الفاء . ولهذا عد الأساس الذى بنى عليه التفرقة بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين أساساً صوتياً ، وهو نسبة وضوح الصوت فى السمع . ففى الحديث بين شخصين بعدت بينهما المسافة قد يخطىء أحدهما سماع صوت ساكن ، ولكنه يندر أن يخطىء سماع صوت لين . وكذلك الحال فى الحديث بالتليفون .

وليست كل أصوات اللين ذات نسبة واحدة فى الوضوح السمعى ؛ بل منها الأوضح . فأصوات اللين المتسعة أوضح من الضيقة ، أى أن الفتحة أوضح من الضمة والكسرة . كما أن الأصوات الساكنة ليست جميعها ذات نسبة واحدة فيه ؛ بل منها الأوضح أيضاً فالأصوات المجهورة أوضح من الأصوات المهموسة .

والوضوح السمعى الذى بنيت عليه التفرقة بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين ، هو تلك الصفة الطبيعية فى الصوت لا المكتسبة من طول أو نبرة [1] . فصوت اللين أوضح بطبعه من الصوت الساكن .

ومن النتائج التى حققها المحدثون أن اللام والميم والنون أكثر الأصوات الساكنة وضوحاً ، وأقربها إلى طبيعة أصوات اللين . ولذا يميل بعضهم إلى

---

(١) انظر الفصل الخامس فى معنى طول الصوت ومعنى النبر .

تسميتها « أشباه أصوات اللين » . ومن الممكن أن تعد حلقة وسطى بين الأصوات الساكنة وأصوات اللين . ففيها من صفات الأولى أن مجرى النفس معها تعترضه بعض الحوائل ، وفيها أيضاً من صفات أصوات اللين أنها لا يكاد يسمع لها أى نوع من الحفيف وأنها أكثر وضوحاً فى السمع .

وهكذا نرى أن أساس التقسيم مرجعه فى آخر الأمر كيفية مرور النفس فى المجرى ، فكأن المجرى ينقسم إلى مناطق متميزة الفرق بينها لا يعدو أن يكون فرقا فى درجة الاتساع : فمنطقة ينحبس عندها النفس وهى منطقة الأصوات الشديدة ، وأخرى يضيق فيها المجرى ضيقاً تختلف نسبته فهناك الضيق وهناك الأضيق ويكون هذا مع الأصوات الرخوة ، فإذا اتسع المجرى وخرج عن النسبة المعينة لهذه الأصوات الرخوة دخلنا إلى منطقة أصوات اللين التى تبدأ بالأصوات المتوسطة وتنتهى بالفتحة وألف المد ومعهما يكون المجرى أوسع ما يكون .

وأصوات اللين فى اللغة العربية هى ما اصطلح القدماء على تسميته بالحركات من فتحة وكسرة وضمة ، وكذلك ماسموه بألف المد وياء المد و واو المد ، وما عدا هذا فأصوات ساكنة .

الفصل الثالث

(١)

مقاييس أصوات اللين

عنى المحدثون من علماء الأصوات اللغوية بالبحث فى أصوات اللين وضبطها ، بصرف النظر عما تنتمى إليه من لغة خاصة . لأنهم لاحظوا أنها تختلف من لغة إلى أخرى اختلافاً يجعل محاولة النطق بلغة أجنبية عسيراً يحتاج إلى مران كبير . فنسبة الخلاف بين أصوات اللين فى اللغة الإنجليزية والفرنسية كبيرة ، تجعل نطق الإنجليزى للغة الفرنسية شاقاً مشوباً بلهجة غريبة ثقيلة على آذان الفرنسيين ، وكذلك العكس بالعكس .

وأصوات اللين فى كل لغة كثيرة الدوران والشيوع ، وأى انحراف عن أصول النطق بها يبعد بنطق المتكلم عن الطريقة المألوفة بين أهل هذه اللغة . فأقل انحراف فى نطقنا لأصوات اللين فى اللغة الإنجليزية ، يجعل نطقنا كمصريين لهذه اللغة غريباً لا تستسيغه الأذن الإنجليزية .

لذلك كان من أوجب الأمور التى يلجأ إليها متعلم هذه اللغة بيننا أن يحاول تقليد النطق بهذه الأصوات كما ينطق بها أبناؤها .

ومن أعقد الصعوبات التى يصطدم بها المصرى فى تعلم اللغة الإنجليزية أصوات اللين الإنجليزية وكيفية النطق بها صحيحة كما ينطق بها الانجليز

أنفسهم . فالأجنبي حين ينطق بلغة غير لغته يتعثر فى نطق أصوات اللين ، ولا يحسن النطق بها إلا بعد مران طويل وجهد كبير لأسباب منها :

١ — أن الفروق بين أصوات اللين فى اللغات بصفة عامة ، كبيرة . ولا تكاد تشترك لغة من اللغات مع أخرى فى كيفية النطق بأصوات اللين . بل إن لهجات اللغة الواحدة لتختلف فيها اختلافاً يميز كل لهجة من هذه اللهجات . فليست أصوات اللين فى لهجات اللغة الإنجليزية ذات طريقة واحدة فى نطقها ، وكذلك الحال فى الفرنسية والعربية وهكذا .

٢ — وضوح أصوات اللين فى السمع إذا قيست بالأصوات الساكنة ، يجعل أى انحراف فى نطق الأولى أبين فى السمع ، نابياً فى الأذن ، يبعد بالمتكلم عن النطق الصحيح .

٣ — نسبة ورود أصوات اللين وشيوعها فى كل كلام ، كبيرة جداً ، تبرز الخطأ فيها وتجسمه .

نعم أن هناك فروقاً بين الأصوات الساكنة فى معظم اللغات ؛ ولكنها ليست من الوضوح أو الشيوع بحيث تقف حجر عثرة فى نطق الأجنبي عن اللغة ، كما يحدث عند النطق بأصوات اللين . هذا إلى أن الأصوات الساكنة سهل ضبطها متى تحدد مخرجها . وفى معظم الأحيان تشترك اللغات فى كثير منها ؛ فمعظم الأصوات الساكنة فى اللغة الفرنسية تماثل إلى حد كبير نظائرها فى اللغة العربية .

لهذا لم يعن المحدثون بوضع أقيسة عامة للأصوات الساكنة فى اللغات البشرية ، كما عنوا بها فى بحث أصوات اللين . فقد اكتفوا بوصف مخرج

الصوت الساكن وكيفية النطق به فى اللغة التى يراد تعلمها . وفى معظم الأحيان كان هذا الوصف ينطبق تمام الانطباق على وصف نفس الصوت فى لغة المتعلم .

فهناك فرق دقيق بين نطق « التاء » فى كل من اللغتين الإنجليزية والفرنسية ؛ إذ مخرجها فى اللغة الأولى من طرف اللسان حين يلتقى بأصول الثنايا العليا ، فى حين أن مخرجها فى الفرنسية هو طرف اللسان حين يلتقى بالأسنان العليا نفسها . ولكن هذا الفرق الدقيق بين « التاء » فى كل من اللغتين لم يكن عقبة كبيرة فى نطق الفرنسى للانجليزية ، أو العكس . بل برهنت التجارب على أنه يسهل التغلب عليه مع قليل من المران . وهكذا أمكن أن يقال إن الفروق بين الأصوات الساكنة فى اللغات ليست من الأهمية بحيث تضطرنا إلى وضع مقاييس مضبوطة لها فى كل لغة ؛ بل يكفى لدراستها فى كل لغة وصف مخارجها وصفاً دقيقاً .

لهذا كله اضطر المحدثون فى تجاربهم أن يستنبطوا مقاييس عامة لأصوات اللين ، بها تقاس أصوات اللين فى كل لغة وتنسب إليها . ولم يتخذوا فى هذه المقاييس لغة خاصة يجعلونها أساساً ، بل اتخذوا تلك المقاييس من عدة لغات مشهورة ؛ بحيث يندرج تحتها أى صوت لين فى أية لغة من اللغات . ومتى أمكن المتعلم إتقان النطق بهذه المقاييس العامة سهل عليه أن ينسب إليها أصوات اللين فى اللغة التى يريد تعلمها .

وأول من عنى بهذه المقاييس پروفسر « دانيال جونز » فى جامعة لندن ، إذ استطاع بعد تجارب دقيقة و بحوث متواصلة أن يخرج لنا تلك المقاييس العامة

لأصوات اللين ، وسجلها فوق اسطوانات هى الآن فى متناول كل من يبغى تعلمها .

وقد بدأ عمله بأن حدد الموضع الذى يمكن أن يصعد إليه أول اللسان نحو وسط الحنك الأعلى ، بحيث يكون الفراغ بينهما كافياً لمرور الهواء ، دون أن يحدث فى مروره أى نوع من الحفيف . فأقصى ما يصل إليه أول اللسان متجهاً نحو الحنك الأعلى ، بحيث لا يحدث الهواء المار بينهما أى نوع من الحفيف ، يعد موضعاً مضبوطاً بين أصوات اللين . وقد رمز له بالرمز (i) وهو ما يشبه الكسرة الرقيقة فى اللغة العربية حين يكون قصيراً ، ويشبه ما يسمى بياء المد حين يكون طويلا . وقد عد المحدثون هذا الصوت أول مقياس لأصوات اللين ، لتحدد موضعه . إذ لو صعد أول اللسان نحو الحنك أكثر من هذا ، سمع الحفيف الذى يخرج به صوت اللين إلى محيط الصوت الساكن الذى نسميه « الياء » ؛ فالفرق بين « الياء » وصوت اللين (i) الطويل ، هو أن موضع اللسان مع الأولى أقرب إلى الحنك الأعلى ، والفراغ الذى بين اللسان والحنك معها أضيق منه فى حالة صوت اللين (i) . ويترتب على هذا أننا نسمع بعض الحفيف مع « الياء » .

وذلك لأن ضيق المجرى عن القدر المعين المحدد لأصوات اللين يخرج بالصوت عن منطقتها إلى منطقة الأصوات الساكنة . فما سماه القدماء بياء المد فى مثل « كريم وقتيل » يشبه إلى حد كبير المقياس الأول الذى يرمز له فى علم الأصوات بالرمز (i) حين يكون هذا المقياس طويلا أى حين يطول زمن النطق به ، أما حين يقصر زمن النطق به فهو قريب الشبه بالكسرة

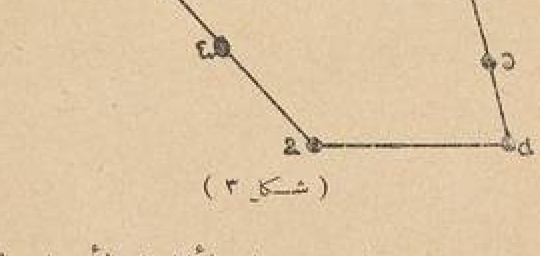
المرققة . فإذا أردنا الانتقال من ياء المد التى هى فى مثل « كريم » والتى تقع فى منطقة أصوات اللين ، إلى الياء العادية التى تـكون فى مثل « بيت » ، أمـكن هذا بتضييق الفراغ بين اللسان والحنك الأعلى .

وتـكوّن المقياس الثانى بأن هبط اللسان إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه فى الفم ، بحيث يستوى فى قاع الفم ، مع انحراف قليل فى أقصى اللسان نحو أقصى الحنك . فتحدد لنا بهذا مقياس آخر ، يرمز إليه عادة بالرمز (a) ، وهو مايشبه الفتحة المفخمة فى اللغة العربية حين يكون قصيراً ، و يشبه ما يسمى بألف المد المفخمة حين يكون طويلا . و بين أقصى ما يصـل إليه اللسان فى صعوده نحو الحنك الأعلى وأقصى ما يصل إليه فى هبوطه بقاع الفم ، استنبط المحدثون ثلاث مراحل عند كل منها يتـكون صوت لين خاص . فاللسان فى هبوطه من موضع (i) إلى موضع (a) يمر بمواضع ثلاثة ، رمز لها بالتدريج : (a ε e) « اقرأ من اليمين » .

وقد اتخذ علماء الأصوات المحدثون ثلاث مراحل أخرى تلى الصوت (a) ، ناظرين فى هذه المرة إلى نسبة صعود أقصى اللسان نحو الحنك . فآخر ما يصل إليه أقصى اللسان فى صعوده نحو أقصى الحنك ، ليـكون الفراغ بينهما من السعة ، بحيث لا يحدث الهواء أى نوع من الحفيف ، هو المقياس الأخير لأصوات اللين ؛ وهو ما يرمز إليه بالرمز (u) ، وهو الذى يشبه الضمة المرققة فى اللغة العربية حين يكون قصـيراً ، ويشبه ما يسمى بواو المدّ حين يكون طويلا . فإذا زاد صعود أقصى اللسان نحو أقصى الحنك ، أحدث الهواء فى

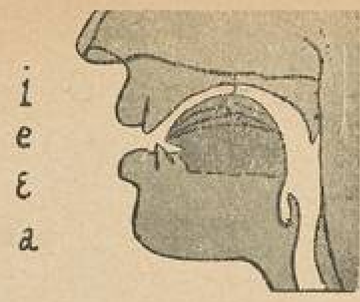
أثناء مروره نوعاً من الحفيف ، وأنتج ذلك الصوت الذى نسميه بالواو . فالفرق بين الواو وصوت اللين (u) الطويل ، هو أن الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك مع الأولى ضيق ، إذا مر خلاله الهواء أحدث نوعاً من الحفيف ، فإذا قورنت الواو العادية التى فى مثل « يوم » بما يسمى بواو المد فى مثل « يقول » ، وجدنا مع نطق الواو العادية نوعاً من الحفيف يجعلها تنتمى إلى الأصوات الساكنة . ويعزى هذا الحفيف إلى ضيق الفراغ بين أقصى اللسان والحنك عن القدر المحدد لأصوات اللين . ويرمز عادة للمرحلتين اللتين بين a و u بالرمزين الآتيين على الترتيب : ɔ o .

وبهذا يتكون لنا ثمانية مقاييس تبدأ بصوت اللين (i) وتنتهى بصوت اللين (u) . وتوضع عادة مدرجة فى شكل كالآتى :



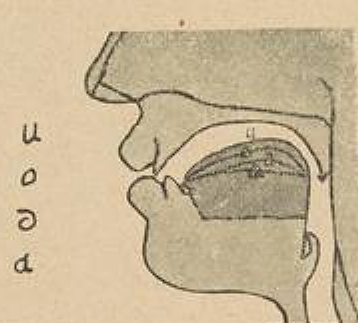
(شكل ٣)

ويتضح موضع اللسان بالنسبة للحنك الأعلى فى الأصوات الأربعة الأولى (a ɛ e i) بملاحظة الشكل الآتى :



(شكل ٤)

كما يتضح موضعه فى الأصوات الأربعة التى تليها (u o ɔ a)
بملاحظة الشكل :



(شكل ٥)

ولقد تحددت الآن الدرجة الصوتية لكل من هذه المقاييس الثمانية ؛ فعرفت بالتجربة أعداد الذبذبات فى الوترين الصوتيين مع كل منها ، مما زادها تحديداً ودقة .

وقد قيست أصوات اللين فى كل اللغات بهذه المقاييس الثمانية ، وانتخب المحدثون عدة كلمات من لغات متباينة ، اشتملت كل كلمة منها على أحد هذه المقاييس :

فالصوت الأول	i	ممثل تمثيلا حسنا فى الكلمة الفرنسية	si
والصوت الثانى	e	» » » » » »	thé
والصوت الثالث	ε	» » » » » »	même
والصوت الرابع	a	» » » » » »	la
والصوت الخامس	α	» » » » » »	Pas
والصوت السادس	ə	» » » » » الألمانية	sonne
والصوت السابع	o	» » » » » الفرنسية	rose
والصوت الثامن	u	» » » » » الألمانية	gut

هذا إلى أن كثيراً من شركات التسجيل الفونوغرافى ، قد سجلت مقاييس أصوات اللين فوق اسطوانات ، يرجع إليها طالب اللغات ؛ فيسمعها ويحاول تقليدها حتى يتقنها ، ويتأكد من موضع اللسان مع كل منها . فاذا قاس عليها صوت لين فى لغة من اللغات لم يحتج إلى جهد كبير فى التعرف على الصوت . وأشهر هذه الاسطوانات رقم ٨٠٤ .B فى اكسفورد ولندن .

ورغم أن الأساس فى تكون هذه المقاييس ، هو موضع أول اللسان بالنسبة للحنك الأعلى ، أو موضع أقصى اللسان بالنسبة لأقصى الحنك ، رغم أن هذا هو الأساس ، قد لاحظ المحدثون أن شكل الشفتين يختلف مع كل من هذه المقاييس ، وتأثر الشفتين مع كل هذه المقاييس أمر لا يصح إغفاله فى وصفها . فالشفتان مع الأصوات (i e ε a) منفرجتان ، وليس فيهما استدارة أو بروز. أما فى حالة الأصوات (α ə o u) فتبدأ الشفتان فى الاستدارة حتى تصلا إلى أقصى ما تصل إليه من كمال فى الاستدارة مع الصوت u .

أما ما يمكن أن يتفرع عن هذه المقاييس الثمانية من أصوات اللين فى اللغات ، فأمر يحتاج إلى مؤلف خاص ، ولانحب أن نعرض له هنا ؛ بل سنحاول فقط أن ننسب إليها أصوات اللين فى اللغة العربية كما ينطق بها المجيدون من القراء فى عصرنا هذا . لأن ما يمكن أن ينطق به الإنسان من أصوات اللين يجاوز الخمسين صوتاً ؛ وإن كان الموجود فعلا فى اللغات المتباينة ، أقل من هذا العدد كثيراً .

ورغم أن جميع أصوات اللين تشترك فى صفات خاصة ، أهمها أنها كلها مجهورة ، وأن مجرى الهواء معها لا تعترضه حوائل فى مروره ؛ بل يندفع فى الحلق والفم حراً طليقاً ، رغم اشتراكها فى مثل هذا ، قد قسمها العلماء إلى مجاميع متجانسة . فحين نظروا إلى نسبة صعود اللسان نحو الحنك ، أمكنهم أن يقسموا أصوات اللين إلى مجموعتين : المجموعة الأولى تشمل أصوات اللين الضيقة close ، وأفراد هذه المجموعة هى i u وما قرب منهما . لأن اللسان مع كل منهما يبلغ أقصى ما يمكن للنطق بصوت لين .

والمجموعة الثانية هى أصوات اللين المتسعة Open وأفرادها (a) وما قرب منها . لأن اللسان معها يبلغ أقصى ما يمكن أن يصل إليه من هبوط فى قاع الفم ، والفراغ بينهما يكون أوسع ما يمكن فى هذا الموضع .

ولهذا التقسيم أهمية خاصة فى تطور الأصوات سنلحظها فيما بعد .

أما إذا نظر إلى جزء اللسان الذى يصعد أو يهبط ، فيمكن تقسيم أصوات اللين إلى مجموعتين رئيسيتين :

١ — أصوات لين أمامية وأفرادها i a وما بينهما . لأنه فى تكون

هذه الأصوات ، نلحظ أن أول اللسان هو الذى يصعد نحو الحنك الأعلى ، أو يهبط نحو قاع الفم .

٢ — أصوات لين خلفية : وأفرادها u a وما بينهما ؛ لأن أقصى اللسان هو الذى يصعد و يهبط حين النطق بها .

(٢)

أصوات اللين فى اللغة العربية

أصوات اللين مع أنها عنصر رئيسى فى اللغات ، ومع أنها أكثر شيوعاً فيها ، لم يعن بها المتقدمون من علماء العربية . فقد كانت الإشارة إليها دائماً سطحية ، لا على أنها من بنية الكلمات ، بل كعرض يعرض لها ، ولا يكوّن منها إلا شطراً فرعياً . ولعل الذى دعا إلى هذا الانحراف أن الكتابة العربية منذ القدم ، عنيت فقط بالأصوات الساكنة فرمزت لها برموز . ثم جاء عهد عليها أحس الكتاب فيه بأهمية أصوات اللين الطويلة ، كالواو والياء الممدودتين ؛ فكتبوهما فى بعض النقوش والنصوص القديمة . وظلت الحال هكذا ، حتى وضعت أصوات اللين القصيرة التى اصطلح القدماء على تسميتها بالحركات فى العصور الإسلامية . فالكتابة التى ليست إلا وسيلة ناقصة للتعبير عن الأصوات اللغوية ، صرفت القدماء عن أهمية أصوات اللين ، فلم يرمز لها برموز فى صلب الكلمات .

وقد أشار ابن جنى فى كتابه « سر صناعة الإعراب[١] » إلى هذه

(١) مخطوط بدار الكتب الملكية .

الأصوات فى قوله « اعلم أن الحركات أبعاض لحروف المد واللين وهى الألف والواو والياء . فكما أن هذه الحروف ثلاثة فكذلك الحركات ثلاث وهى الفتحة والكسرة والضمة . وقد كان متقدمو النحاة رحمهم الله تعالى يسمون الفتحة الألف الصغيرة والكسرة الياء الصغيرة والضمة الواو الصغيرة . وقد كانوا فى ذلك على طريقة مستقيمة . ألا ترى أن الألف والياء والواو اللواتى هن حروف توام كوامل ، قد تجدهن فى بعض الأحوال أطول وأتم منهن فى بعض ؛ وذلك إذا وقعت بعدهن الهمزة والحرف المدغم نحو « يشاء » « دابة » وهن فى كلا الموضعين يسمين حروفاً كوامل . فاذا جاز ذلك فليست تسمية الحركات حروفاً صغاراً بأبعد فى القياس منه . ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن حدث بعدها الحرف الذى هى بعضه . إلا أن هذه الحروف التى يحدثُن لإشباع الحركات لايكن إلا سواكن لأنهن مدات والمدات لايحركن أبداً » .

هذا مارواه ابن جنى ، ومنه نرى أن بعض القدماء قد أحس كما يحس المحدثون بأن الفرق بين الفتحة وما يسمى بألف المدّ لايعدو أن يكون فرقاً فى الكمية . وكذلك الفرق بين ياء المد وواو المد إذا قورنتا على الترتيب بالكسرة والضمة ، ليس إلا فرقا فى الكمية . فما يسمى بألف المد هى فى الحقيقة فتحة طويلة وما يسمى بياء المد ، ليست إلا كسرة طويلة ، وكذلك واو المد تعد من الناحية الصوتية ضمة طويلة . فكيفية النطق بالفتحة ، وموضع اللسان معها يماثل كل المماثلة كيفية النطق بمايسمى ألف المد ، مع ملاحظة فرق الكمية بينهما .

ونستنتج مما رواه ابن جنى أن أصوات اللين التى اعترف بها القدماء ،

هى فى الحقيقة ثلاثة فقط ، بصرف النظر عن طول[1] الصوت وقصره ، فلا يغير هذا من حقيقته . وتلك الأصوات هى ماتسمى عادة بالفتحة والكسرة والضمة . فكلما أشرنا هنا إلى أصوات اللين القصيرة فى اللغة العربية ، لانعنى أكثر مما سماه القدماء بالفتحة والكسرة والضمة . أما طول الصوت فسنعرض له فيما بعد .

وحين نذكر اللغة العربية نشير إلى الحالة التى رويت لنا فى القراءات القرآنية كما يتلوها مجيدو القراءات فى مصر الآن . إذ ليس لدينا من وسيلة نؤكد بها كيفية النطق بهذه الأصوات فى العصور القديمة سوى عن طريق التلاوة المتواترة . لأن أصوات اللين فى اللهجات العربية الحديثة ، قد أصابها تطور كبير ، وهى تختلف فى مصر عنها فى الشام والعراق . وليس هنا مجال بحثها فى هذه البيئات العربية . بل لعل أصوات اللين تختلف بعض الشىء ، حتى فى القراءة القرآنية الشائعة الآن فى كل بيئة من هذه البيئات العربية . فأصوات اللين فى قراءة المصرى ، تختلف قليلا عنها فى قراءة الشامى وهكذا .

والنموذج الذى نبنى عليه حكمنا على أصوات اللين فى اللغة العربية ، هو نطق المجيدين للقراءات القرآنية فى مصر ، غير ناظرين إلى أصوات اللين المختلفة فى لغة الكلام بمصر ، لأنها تختلف باختلاف اللهجات المصرية الحديثة .

فالفتحة والكسرة والضمة وما يتفرع عنها من حروف مد ، هى أصوات اللين العربية التى أشار إليها القدماء . غير أنهم فى ثنايا مؤلفاتهم قد ذكروا لبعضها أنواعاً أخرى .

---

(١) يفرق عادة بين صوت اللين الطويل والقصير فى الكتابة الفوناتيكية بأن يوضع أمام الطويل نقطتان هكذا : a:

ولكن القدماء قد ضلوا الطريق السوى حين ظنوا أن هناك حركات قصيرة قبل حروف المد ، فقالوا مثلا إن هناك فتحة على التاء فى « كتاب » ، وكسرة تحت الراء فى « كريم » ، وضمة فوق القاف فى « يقول » ! ! والحقيقة أن هذه الحركات القصيرة لا وجود لها فى تلك المواضع ، فالتاء فى « كتاب » محركة بألف المد وحدها ، والراء فى « كريم » محركة بياء المد وحدها ، والقاف فى « يقول » محركة بواو المد وحدها . ويظهر أن الكتابة العربية فى صورتها المألوفة من وضع فتحة على التاء فى « كتاب » وكسرة تحت الراء فى « كريم » وضمة فوق القاف فى « يقول » ، قد جعلت القدماء يتوهمون وجود حركات قصيرة فى مثل هذه المواضع .

ولذلك توهم ابن جنى فى سر الصناعة أن هناك فتحة ممالة نحو الضمة قبل ألف التفخيم فى كلمة « الصلاة » ، وعدها نوعا فرعياً من أنواع الفتحة .

وكان واجب ابن جنى أن يقصر الأنواع الفرعية لأصوات اللين على ما يأتى :

١ — تلك الفتحة المشوبة بالكسرة وهى التي فى إمالة ماقبل تاء التأنيث كما فى قراءة الكسائى لكلمة مثل « رحمة » حين الوقف عليها .

٢ — ألف المد حين تمال تصبح مشوبة بالكسرة كما فى قراءة « ربا » بالامالة . ولا فرق بين هذا النوع والنوع الأول إلا فى الكمية .

٣ — مايسمى بألف التفخيم ، وهى ألف مد ممالة نحو الضم كما فى قراءة بعض القراء لكلمة « الصلاة » .

٤ — ياء المد الممالة نحو الضم ، وذلك هو ماسماه النحاة بالاشمام حين

ينطق بعض العرب بالفعل المبنى للمجهول فى مثل قيل و بيع .

و يظهر أن تلك الأنواع الفرعية التى أشار إليهـا ابن جنى كانت شائعة فى اللهجات العربية القديمة ، و إن لم ينسبها ابن جنى لقبائلها من سوء الحظ .

وقد أفاض القراء فى وصف إمالة الفتحة نحو الـكسرة ، وحصصوا لهذا فصولا طويلة ، كما وضعوا لها أحكاما وشروطاً ، وموضع كل هـذا كتب القراءات . فالقراء إذن عنوا بنوع واحد من أنواع الفتحة قصيرها وطويلها ، لـكثرة شيوعه فى اللهجات العربية . بل لقد قسموا إمالة الفتحة إلى الـكسرة إلى قسمين كلاهما جائز فى القراءة ، جار على ألسنة العرب : وهما الامالة الشديدة أى التى تصبح الفتحة فيها أقرب إلى الـكسرة ، و إمالة خفيفة وهى نوع من الفتحة ممـالة إلى الـكسرة ؛ ولـكنها فى إمالتها تكون أقرب إلى أصلها وهو الفتح منها إلى الـكسر .

وقد نسب القراء الفتح إلى لهجة الحجاز ، والإمالة إلى أهل نجد من تميم وقيس وأسد .

ومحاولة قياس أصوات اللين كلها ، كما رواها ابن جنى ، بتلك المقاييس العامة التى أشرنا إليها من قبل ، يتطلب بحثاً خاصاً فى اللهجات العربية القديمة أحسب أن المستقبل كفيل به .

أما نسبة الـكسرة كما نسمعها من قراء مصر حين يلتزمون قراءة حفص ، فهى تشبه كل الشبه ذلك الصوت الذى يرمز إليه بالرمز (i) ؛ غير أنه حين تتأثر بأصوات التفخيم (الصاد . الضاد . الطاء . الظاء) وربما أيضاً (الخاء . الغين القاف) نلحظ ميل هذا الصوت قليلا نحو ذلك المقياس الذى يرمز إليه بالرمز

(e) . ويحدث هذا بصفة خاصة مع أصوات الإطباق (الطاء . الظاء . الضاد الصاد) . وهذا التغيير فى صوت اللين غير مقصود لذاته ؛ بل يحتمه انتقال اللسان من وضعه الأمامى الضيق إلى ما تتطلبه أصوات الإطباق من صعوده نحو الحنك الأعلى متخذاً شكلا مقعراً[١] .

فإذا قيست الفتحة العربية بمقاييس أصوات اللين ، وجدناها قريبة الشبه بذلك المقياس الذى يرمز إليه بالرمز (a) ولكنها لا تنطبق عليه تمام الانطباق . و يتجه هذا الصوت قليلا نحو المقياس الذى يرمز إليه بالرمز (α) حين تتأثر الفتحة بأصوات التفخيم .

أما الضمة العربية فهى تنطبق تمام الانطباق على المقياس الذى يرمز إليه بالرمز (u) غير متأثرة بالأصوات المستعلية .

أما أصوات اللين الممالة فنكتفى هنا بقياس الفتحة الممالة نحو الكسرة ، وتلك هى اللغة الشائعة فى اللهجات العربية قديمها وحديثها ، والتى استحقت كل العناية من جمهور القراء .

فإذا كانت الإمالة شديدة ، أمكن أن تكون الفتحة قريبة الشبه بالمقياس (e) . أما فى الإمالة الخفيفة فيظهر أن الفتحة حينئذ تشبه إلى حد كبير المقياس ε .

والفتحة بأنواعها تعد من أصوات اللين المتسعة ، إلا إذا كانت ممالة إمالة شديدة . أما الضمة والكسرة فهما من أصوات اللين الضيقة . ولهذا التقسيم أهميته فيما يعرض لهذه الأصوات من الظواهر اللغوية . إذ نلحظ فى

---

(١) انظر صفحة ٥ شكل ٧ يوضح موضع اللسان مع أصوات الأطباق .

معظم الأحيان أن ما يجرى على الضمة يجرى على الكسرة ، لأن كلا منهما صوت لين ضيق ، بخلاف الفتحة فهى قسم مستقل له ظواهره الخاصة .

(٣)

أشباه أصوات اللين

هناك صوتان بين الأصوات اللغوية يستحقان دائماً أن يعالجا علاجا خاصاً ، لأن موضع اللسان معهما قريب الشبه بموضعه مع أصوات اللين ؛ ومع هذا فقد دلت التجارب الدقيقة على أننا نسمع لهما نوعاً ضعيفاً من الحفيف . وهذان الصوتان هما ما اصطلح علماء العربية على تسميتهما بالياء والواو في مثل (بيت ، يوم) . ففى تكوّن « الياء » نلحظ أن اللسان يكون تقريباً فى موضع النطق بصوت اللين (i) ، غير أن الفراغ بين اللسان ووسط الحنك الأعلى حين النطق بالياء يكون أضيق منه فى حالة النطق بصوت اللين (i) ؛ مما ترتب عليه أننا نسمع ذلك النوع الضعيف من الحفيف . فالياء لأنها تشتمل فى النطق بها على حفيف ، يمكن أن تعد صوتاً ساكناً . أما إذا نظر إلى موضع اللسان معها فهى أقرب شبهاً بصوت اللين (i) . لهذا اصطلح المحدثون على تسمية الياء بشبه صوت اللين .

وكذلك الواو لا فرق بينها و بين الضمة (u) إلا في أن الفراغ بين أقصى اللسان وأقصى الحنك فى حالة النطق بالواو أضيق منه فى حالة النطق بالضمة (u) ؛ فيسمع للواو أيضاً نوع ضعيف من الحفيف جعلها أشبه بالأصوات

الساكنة . أما حين ينظر إلى موضع اللسان معهما ، فيمكن أن نعدها شبه صوت اللين (u)..

فالياء والواو هما المرحلة التى عندها يمكن أن ينتقل الصوت الساكن إلى صوت لين .

والحقيقة أن الياء صوت انتقالى ، أى أنها تتكون من موضع صوت اللين (i) ثم تنتقل بسرعة إلى موضع آخر من مواضع أصوات اللين . وكذلك الواو يبدأ تكونها من موضع صوت اللين (u) ثم ينتقل اللسان بسرعة إلى موضع صوت لين آخر .

فكل من الياء والواو صوت انتقالى . ومن أجل هذه الطبيعة الانتقالية ، ولقصرهما وقلة وضوحهما فى السمع إذا قيسا بأصوات اللين ، أمكن أن يعدا من الأصوات الساكنة .

فللياء والواو طبيعة مزدوجة ، ولذا آثرنا علاجهما علاجاً خاصاً . ويعرض لكل من هذين الصوتين ظواهر لغوية كثيرة ، أشهرها أنهما قابلان للتحول إلى أصوات لين خالصة . فمخرج الياء، كما تحققه التجارب الحديثة ، ينطبق إلى حد كبير على وصف القدماء له . أما مخرج الواو فليس الشفتين كما ظن القدماء ؛ بل هو فى الحقيقة من أقصى اللسان حين يقترب من أقصى الحنك ؛ غير أن الشفتين حين النطق بها تستديران ، أو بعبارة أدق تكمل استدارتهما . وقد ذكرنا آنفا أن الشفتين تتأثران بنطق أصوات اللين ، فهما منفرجتان مع أصوات اللين الأمامية ومستديرتان مع أصوات اللين الخلفية . فكما تتأثر الشفتان بنطق الياء فتنفرجان معها تتأثران أيضاً بنطق الواو فتستديران معها .

ولعل وضوح استدارة الشفتين مع الواو هو الذى جعل القدماء ينسبون مخرج الواو إلى الشفتين .

وهو الذى جعل أصحاب القراءات حين يتحدثون عن نوع من القراءة سموه « الإشمام » ، يشيرون إلى إمكان الدلالة على الضمة بحركة الشفتين . فالمتعلم حين يقرأ على أستاذ مبصر قوله تعالى « رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير » لا ينطق بالضمة التى فى كلمة « فقير » ، وإنما يشير إلى وجودها باستدارة شفتيه ليشعر أستاذه أنه يدرك أن هذه الكلمة رغم الوقف عليها بالسكون ، تشكل بالضم فى حالة الوصل . فالإشمام فى القراءة يرى ولا يسمع ، ولا يراعى الإشمام بطبيعة الحال إلا حين يكون هناك قارىء وسامع مبصر .

الفصل الرابع

(١)

الأصوات الساكنة ومخارجها وصفاتها

سبق أن شرحنا معنى الصوت الساكن . ولحسن الحظ لا تحتاج هذه الأصوات إلى مقاييس كتلك التى احتاجت إليها أصوات اللين ؛ إذ ليس هناك بين صوتين كالميم والتاء مثلا ، سلسلة من الأصوات كما لاحظنا فى حالة صوتى اللين i و a . فهناك سلسلة من أصوات اللين متدرجة بين هذين الصوتين ، كما أن هناك سلسلة أخرى من أصوات اللين بين الصوتين a و u . وقد لاحظنا قبلا ، تدرج أصوات اللين من المقياس الأول i إلى المقياس الثامن u . فأصوات اللين مرتبطة بعضها ببعض ، فى حين أن الأصوات الساكنة مستقلة بعضها عن بعض ، ويكون كل منها وحدة قائمة بذاتها تفرق بينها المخارج وطريقة النطق . ولا بد إذن فى شرح الأصوات الساكنة أن يؤخذ كل صوت على حدته ، وفى لغته . واختلاف أفراد البيئة الواحدة فى النطق بالأصوات الساكنة لايكاد يدرك . ولذلك لا تعنى الدراسات الصوتية بمثل تلك الفروق الضئيلة التى تختلف من شخص لآخر بين أفراد البيئة الواحدة . هذا ومن السهل أن نشرح الأصوات الساكنة ممثلة فى كلمات لغة من اللغات ، ويكون الاعتراض عليها فى هذا الشرح أقل كثيراً

مما لو شرحت أصوات اللين بهذه الطريقة . فالتاء فى جميع اللغات اللاتينية الأصل (كالفرنسية والإيطالية والأسبانية) نطقها يكاد يكون متحداً ؛ بل هو أيضاً نفس نطق التاء فى اللغة العربية . فى حين أن هذه اللغات المتباينة يندر أن تتحد فى صوت لين . على أنه فى حالة اختلاف بعض الأصوات الساكنة من لغة لأخرى أو من لهجة لأخرى ، نجد الفرق واضحاً متميزاً لا يحتاج إلى كبير عناء فى التعرف عليه . لهذا نؤثر هنا علاج الأصوات الساكنة فى اللغة العربية حسب مخارجها ، وكيفية النطق بها ؛ دون الإشارة إلى مقارنتها بنظائرها فى لغات أخرى ، ودون نسبتها إلى مقاييس عامة كما كان الحال فى شرح أصوات اللين العربية .

الأصوات الشفوية :

الباء (b)

صوت شديد مجهور . يتكون بأن يمر الهواء أولا بالحنجرة ، فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه بالحلق ثم الفم حتى ينحبس عند الشفتين منطبقتين انطباقاً كاملاً . فإذا انفرجت الشفتان سمعنا ذلك الصوت الانفجارى الذى يسمى بالباء . فللنطق بالباء تنطبق الشفتان أولا حين انحباس الهواء عندهما ، ثم تنفرجان فيسمع صوت الباء .

وقد حرص القدماء على الجهر بهذا الصوت وهو مشكل بذلك الرمز المسمى بالسكون ، فأضافوا إليه صوت لين قصير جداً يشبه الكسرة وسموا تلك الظاهرة بالقلقلة ، حرصاً منهم على إظهار كل ما فى هذا الصوت من

جهر فلا يختلط بنظيره المهموس الذى يرمز إليه فى الكتابة الأوربية بالرمز p ، لأن مهموس الباء ليس صوتاً أساسياً من أصوات اللغة العربية .

الميم « m »

صوت مجهور لا هو بالشديد ولا الرخو ؛ بل مما يسمى بالأصوات المتوسطة . ويتكون هذا الصوت بأن يمر الهواء بالحنجرة أولا ، فيتذبذب الوتران الصوتيان ، فإذا وصل فى مجراه إلى الفم هبط أقصى الحنك ، فسد مجرى الفم فيتخذ الهواء مجراه فى التجويف الأنفى ، محدثاً فى مروره نوعاً من الحفيف لا يكاد يسمع . وفى أثناء تسرب الهواء من التجويف الأنفى تنطبق الشفتان تمام الانطباق . ولقلة ما يسمع للميم من حفيف اعتبرت فى درجة وسطى بين الشدة والرخاوة . لأن خاصية الأصوات الشديدة هى الانفجار حين النطق بها ، وخاصية الأصوات الرخوة هى نسبة الحفيف الذى قد يصل فى بعض الأصوات الرخوة إلى صفير ، كما فى السين والزاى ... الخ

الصوت الشفوى الأسنانى :

وهو الفاء فقط « f » . والفاء العربية صوت رخو مهموس ، يتكون بأن يندفع الهواء مارا بالحنجرة دون أن يتذبذب معه الوتران الصوتيان ، ثم يتخذ الهواء مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت وهو بين الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا . ويضيق المجرى عند مخرج الصوت ، فنسمع نوعاً عالياً من الحفيف هو الذى يميز الفاء بالرخاوة . وليس للفاء العربية نظير مجهور كذلك الذى نشهده فى معظم اللغات الأوربية والذى يرمز له فيها بالرمز (V) .

المجموعة الكبرى من الأصوات المتقاربة المخارج :

أفراد هذه المجموعة هى : (الذال الثاء الظاء . الدال الضاد التاء الطاء . اللام النون الراء . الزاى السين الصاد) . ووجه الشبه بين كل هذه الأصوات هو أن مخارجها تكاد تنحصر بين أول اللسان (بما فيه طرفه) والثنايا العليا (بما فيها أصولها) . على أنه رغم تقارب مخارجها ، تفرق بينها صفات صوتية متباينة تحتم علينا تقسيمها إلى مجاميع فرعية يشترك أفرادها فى المخرج ، أو بعبارة أدق يكاد يتحد مخرج كل من أفراد تلك المجاميع الفرعية .

وتشترك أفراد هذه المجموعة الكبرى فى ظواهر لغوية سنعرض لها فيما بعد . وتلك الظواهر مضافاً إليها قرب المخارج ، كان مبرراً كافياً لضمّ أفراد هذه المجموعة فى محيط واحد .

أما المجاميع الفرعية التى تنقسم إليها هذه المجموعة الكبرى فهى :

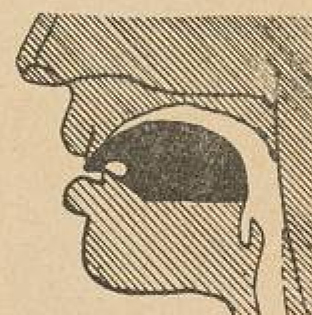
١ — الذال . الثاء . الظاء .

وقد اصطلح القدماء على تسمية هذه الأصوات باللثوية . ولا يعنينا هنا البحث عن سر هذه التسمية القديمة بقدر ما يعنينا معرفة مخرج كل منها وصفته .

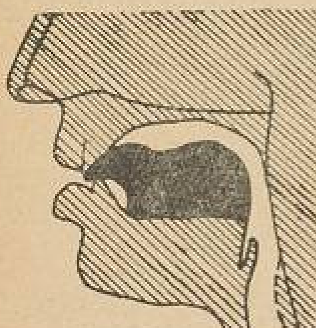
فالذال : صوت رخو مجهور . يتكون بأن يندفع معه الهواء ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ الهواء مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت ، وهو بين طرف اللسان والثنايا العليا ؛ وهناك يضيق هذا المجرى فنسمع نوعا قويا من الحفيف .

ولا فرق بين الذال والثاء إلا فى أن الثاء صوت مهموس لا يتحرك معه الوتران الصوتيان . فالذال إذن صوت مجهور نظيره المهموس هو الثاء .

أما الظاء : فهى صوت مجهور كالذال تماماً ؛ ولـكن هذا الصوت يختلف عن الذال فى الوضع الذى يأخذه اللسان مع كل منهما . فعند النطق بالظاء ينطبق اللسان على الحنك الأعلى آخذاً شكلا مقعراً كما يلاحظ فى الشكلين الآتيين اللذين يمثلان موضع اللسان مع كل من الذال والظاء .



(شكل ٦)
وضع اللسان مع (الذال)



(شكل ٧)
وضع اللسان مع (الظاء)

ففى حالة النطق بالظاء يرتفع طرف اللسان وأقصاه نحو الحنك ويتقعر وسطه كما هو واضح فى الشكل   . ولذلك اعتبر القدماء الظاء أحد أصوات الإطباق .

ب — الدال . الضاد . التاء . الطاء .

والصفة التى تجمع بين هذه الأصوات الأربعة عدا اتحاد مخارجها ، هى الشـــدة . فعند النطق بكل منها ينحبس الهواء عند المخرج ، فاذا انفصل العضوان المكونان للصوت سمع ما يشبه الانفجار ، مما يميز هذه الأصوات بالشـدة .

فالدال: صوت شديد مجهور، يتكون بأن يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين، ثم يأخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى مخرج الصوت فينحبس هناك فترة قصيرة جداً لالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكما. فاذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمع صوت انفجارى نسميه بالدال. فالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا يعد حائلا يعترض مجرى الهواء ولا يسمح بتسربه حتى ينفصل العضوان انفصالا مفاجئا يتبعه ذلك الانفجار.

الضاد: الضاد كما ننطق بها الآن فى مصر لا تختلف عن الدال فى شىء سوى أن الضاد أحد أصوات الإطباق. فعند النطق بها ينطبق اللسان على الحنك الأعلى متخذاً شكلا مقعرا (انظر شكل ٧).

فالضاد الحديثة صوت شديد مجهور يتحرك معه الوتران الصوتيان، ثم ينحبس الهواء عند التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا، فاذا انفصل اللسان عن أصول الثنايا سمعنا صوتا انفجاريا هو الضاد كما ننطق بها فى مصر.

ويستدل من وصف القدماء لهذا الصوت على أن الضاد كما وصفها الخليل ومن نحوا نحوه، تخالف تلك التى ننطق بها الآن. فالضاد الأصلية كما وصفت فى كتب القراءات أقل شدة مما ننطق بها الآن، إذ معها ينفصل العضوان المكونان للنطق انفصالا بطيئاً نسبياً، ترتب عليه أن حل محل الانفجار الفجائى انفجار بطىء نلحظ معه مرحلة انتقال بين هذا النوع من الأصوات وما يليه من صوت لين. فاذا نطق بالضاد القديمة وقد وليتها فتحة مثلا، أحسسنا بمرحلة انتقال بين الصوتين، تميز فيها كل منهما تميزا كاملا.

هذا إلى أن الضاد كما وصفها القدماء كانت تتكون بمرور الهواء بالحنجرة، فيحرك الوترين الصوتيين ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم، غير أن مجراه فى الفم جانبى — عن يسار الفم عند أكثر الرواة أو عن يمينة عند بعضهم أو من كلا الجانبين كما يستفاد من كلام سيبويه. ويظهر أن الضاد القديمة كانت عصية النطق على أهالى الأقطار التى فتحها العرب، أو حتى على بعض القبائل العربية فى شبه الجزيرة، مما يفسر تلك التسمية القديمة « لغة الضاد »، كما يظهر أن النطق القديم بالضاد كان إحدى خصائص لهجة قريش.

والذى نستطيع تأكيده هنا هو أن الضاد القديمة قد أصابها بعض التطور حتى صارت إلى ما نعهده لها من نطق فى مصر، وأن هذا التطور كان قد تم فى عهد ابن الجزرى، أى فى القرن الثامن الهجرى. فهو يقول فى كتابه التمهيد إن المصريين و بعض المغاربة ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة، وسيتضح لنا هذا القول حين نتحدث عن الطاء.

ولا يزال العراقيون حتى الآن و بعض البدو ينطقون بنوع من الضاد يشبه إلى حد ما الظاء، كما يشبه إلى حد كبير ذلك الوصف الذى روى لنا عن الضاد القديمة. والذين مارسوا التعليم فى بلاد العراق يذكرون كيف يخلط التلاميذ هناك بين الظاء والضاد.

والضاد القديمة كما أتخيلها يمكن النطق بها بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة ثم ينتهى نطقه بالظاء، فهى إذن مرحلة وسطى، فيها شىء من شدة الضاد الحديثة وشىء من رخاوة الظاء العربية.

التاء: صوت شديد مهموس، لافرق بينه و بين الدال سوى أن التاء

مهموسة والدال نظيرها المجهور . ففى تكوّن التاء لايتحرك الوتران الصوتيان ، بل يتخذ الهواء مجراه فى الحلق والفم حتى ينحبس بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا ، فاذا انفصلا انفصالا فجائيا سمع ذلك الصوت الانفجارى .

الطاء : الطاء كما نعرفها فى مصر لاتفترق عن التاء فى شىء ، غير أن الطاء أحد أصوات الإطباق (أنظر الشكل ٧) . فالطاء كما ننطق بها الآن صوت شديد مهموس يتكون كما تتكون التاء ، غير أن وضع اللسان مع الطاء يختلف عن وضعه مع التاء ، فاللسان مع الطاء يتخـــذ شكلا مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى .

وقد أجمع الرواة فى وصفهم للطاء القديمة على أنها صوت مجهور ، مما يحملنا على الاعتقاد أن الطاء القديمة تخالف التى ننطق بها الآن ، على أن وصف الطاء فى كتب الأقدمين لايمكن الباحث المدقق من تحديد كل صفات ذلك الصوت ولا كيف كان ينطق به على وجه الدقة . غير أنه من الممكن أن نستنتج من وصفهم أنها كانت صوتاً يشبه الضاد التى نعرفها الآن . وهنا يتضح معنى قول ابن الجزرى إن المصريين ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة .

وليس من المحتمل أن يكون القدماء قد خلطوا فى وصفهم بين صفتى الجهر والهمس فيما يتعلق بهذا الصوت ، ولـكن الذى أرجحه أن صوت الطاء كما وصفها القدماء كان يشبه الضاد الحديثة ، ولعل الضاد القـديمة كانت تشبه ما نسمعه الآن من العراقيين فى نطقها ، ثم تطور الصوتان فهمست الأولى وأصبحت الطاء التى نعرفها الآن ، كما اختلف مخرج الثانية وصفتها فأصبحت تلك الضاد الحديثة ، أى أن ما كان يسمى بالطاء كان فى الحقيقة ذلك الصوت

الذى ننطق به الآن ونسميه « ضادا » فلما همست أصبحت الطاء الحديثة التى فيما يظهر لم تكن معروفة فى النطق العربى القديم . أما الضاد القديمة العصية النطق فقد تطور مخرجها وصفتها حتى أصبحت على الصورة التى نعهدها فى مصر .

ويؤيد هذا ما نسمعه الآن من نطق أهل اليمن و بعض البدو للطاء فى كلمة مثل « مطر وأمطار » كأنما هى (مضر وأمضار) . فالطاء القديمة المجهورة لا نزال نسمعها فى بعض اللهجات الحديثة . كما يؤيده قول ابن جنى فى سر الصناعة نقلا عن سيبويه فى كتابه (لولا الإطباق لصارت الطاء دالا والصاد سينا والظاء ذالا ولخرجت الضاد من الكلام لأنه ليس شىء من موضعها غيرها) . فهما فى هذا النص يتحدثان عن الأصوات المطبقة وما يمكن أن لها من نظائر مستفلة . فالطاء عندهما صوت مطبق ونظيره غير المطبق هو الدال أى أن اللسان مع الطاء يكون مقعرا (انظر شكل ٧) ولا يكون كذلك مع الدال ، فكلاهما مجهور ومخرجهما واحد ولا فرق بينهما إلا فى شكل اللسان مع كل منهما .

ولكن التجارب الحديثة تبرهن على أن الطاء كما ننطق بها الآن صوت مهموس وأن نظيرها غير المطبق هو التاء ، كما تبرهن على أن الصوت المطبق الذى نظيره الدال هو الضاد كما ننطق بها الآن . فما وصفوه لنا على أنه الطاء هو فى الحقيقة الضاد الحديثة . كذلك يستنتج من قولهما « ولخرجت الضاد من الكلام » أنهما قد قصدا ضاداً غير التى ننطق بها الآن ، لأن التى ننطق بها الآن إذا جردت من الإطباق أصبحت دالا .

حـ — اللام . الراء . النون .

لقد سمى بعض القدماء هذه الأصوات الثلاثة بالأصوات الذلقية . ولن أحاول هنا التعرض لسر هذه التسمية القديمة ، وإنما أبغى الانتفاع بها فقط . ولا شك أن المؤلفين القدماء قد أحسوا بالعلاقة الصوتية بين هذه الأصوات فجمعوها تحت اسم واحد أياً كان هذا الاسم . وكذلك المحدثون من علماء الأصوات اللغوية يرون وجه شبه كبير بين هذه الأصوات الثلاثة كما سنبين فيما بعد ، فلا بأس إذن من أن نعدها مجموعة صوتية متميزة .

أما وجه الشبه بين أفراد هذه المجموعة الفرعية كما يراه المحدثون فهو أنها مع قرب مخارجها تشترك فى نسبة وضوحها الصوتى ، وأنها من أوضح الأصوات الساكنة فى السمع ، ولهذا أشبهت من هذه الناحية أصوات اللين . فهى جميعاً ليست شديدة أى لا يسمع معها انفجار ، وليست رخوة فلا يكاد يسمع لها ذلك الحفيف الذى تتميز به الأصوات الرخوة . ولذلك عدها القدماء من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة . أما باقى الأصوات المتوسطة كالميم والعين فهما بعيدان عن أصواتنا الثلاثة من ناحية المخرج وإن اتحدا معها صفة .

اللام : اللام نوعان مرققة ومغلظة . على أن الأصل فى اللام العربية الترقيق ، ولا يجوز الرجوع عن هذا الأصل عند جمهور القراء إلا بشرطين :

١ — أن يجاور اللام أحد أصوات الاستعلاء « ولا سيما الصاد والطاء والظاء » ساكناً أو مفتوحاً .

٢ — أن تكون اللام نفسها مفتوحة .

مثل : وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شبه لهم — سيصلى ناراً ذات لهب — سلام هى حتى مطلع الفجر — والمطلقات يتربصن بأنفسهن — وما ظلمناهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون — ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً .

على أن جمهور القراء قد أجمعوا على تغليظ اللام فى اسم الجلالة إذا لم يسبقها كسرة نحو : بسم الله .

واللام صوت متوسط بين الشدة والرخاوة ، ومجهور أيضاً . ويتكون هـذا الصوت بأن يمر الهواء بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق وعلى جانبى الفم فى مجرى ضيق يحدث فيه الهواء نوعاً ضعيفاً من الحفيف . وفى أثناء مرور الهواء من أحد جانبى الفم أو من كليهما ، يتصل طرف اللسان بأصول الثنايا العليا وبذلك يحال بين الهواء ومروره من وسط الفم فيتسرب من جانبيه .

أما الفرق بين اللام المرقفة والمغلظة فهو فى وضع اللسان مع كل منهما . لأن اللسان مع المغلظة يتخذ شكلا مقعراً كما هو الحال مع أصوات الإطباق . (انظر شكل ٧) . فالفرق بين اللام المرققة والمغلظة هو نفس الفرق الصوتى بين الدال والضاد ، أو التاء والطاء . ولـكن الرسم العربى لم يرمز إلى اللام المغلظة برمز خاص تختلف باختلافه الـكلمة . لهذا نعد نوعى اللام صـوتاً واحداً ، ولـكن « التاء » صوت مستقل عن « الطاء » تختلف الـكلمة فى معناها مع كل منهما .

ومن القراء من يفخم معظم اللامات مثل « ورش » القارىء المصرى المشهور ، مما هو مفصل فى كتب القراءات .

الراء : هى أيضاً نوعان : مرققة ومفخمة . ورغم اختلاف القراء فى تفخيم الراء وترقيقها إلى حد يشبه الاضطراب ، يمكن أن نستخلص من تلك الآراء المتشعبة ضوابط عامة يكاد يجمع عليها القراء :

١ — تفخم الراء المفتوحة إلا إذا سبقها كسرة أو ياء مدّ نحو : رزقكم — صبروا .

ولكنها ترقق فى مثل : لم يكن الله ليغفر لهم — فقد خسر خسراناً مبينا . وإن كانت لكبيرة .

٢ — ترقق الراء المكسورة مطلقاً مثل : رزْق — رجْس .

٣ — تفخم الراء الساكنة إذا سبقها فتح مثل : يرجعون .

٤ — ولكن الساكنة التى يسبقها كسر فترقق مثل : فرعون ، إلا إذا وليها صوت استعلاء مثل : قرطاس .

أما الراء المضمومة أو الساكنة وقبلها ضم فحكمها غامض لا نكاد نهتدى فيه إلى رأى ينطبق على ما نسمعه من أفواه القراء فى الوقت الحاضر .

والفرق بين الراء المرققة والمفخمة يشبه الفرق بين اللام المرققة والمغلظة ، أى أن الراء المفخمة تعد من الناحية الصوتية أحد أصوات الإطباق ، ولكن الرسم العربى لم يرمز لها برمز خاص يتغير بتغيره معنى الكلمة . ولهذا نعد كلا النوعين صوتاً واحداً .

وليس يغنى عنا شيئاً أن نبحث فى : هل الأصل فى الراء التفخيم أم الترقيق ؟ ولكن الكثرة فيما ورد من الراءات جاء مفخماً ؛ وذلك لأن نسبة شيوع الفتحة فى اللغة العربية حوالى ٤٦٠ فى كل ألف من الحركات قصيرها

وطويلها ، فى حين أن الكسرة حوالى ١٧٤ والضمة ١٤٦ . على أنه مما لا شك فيه أن العرب كانوا يستقبحون تفخيم الراءات المكسورة وينسبون تفخيم الراء المكسورة إلى العوام وإلى « النبط » على ما روى فى كتب القدماء .

والراء صوت مكرر ، لأن التقاء طرف اللسان بحافة الحنك مما يلى الثنايا العليا يتكرر فى أثناء النطق بها ، كأنما يطرق طرف اللسان حافة الحنك طرقاً ليناً يسيراً مرتين أو ثلاثاً لتتكون الراء العربية .

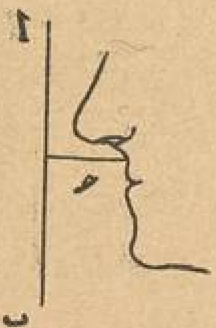
والراء كاللام فى أن كلا منهما من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة ، وأن كلا منهما مجهور . فلتكوّن الراء يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم حتي يصل إلى مخرجه وهو طرف اللسان ملتقياً بحافة الحنك الأعلى فيضيق هناك مجرى الهواء .

والصفة المميزة للراء هى تكرر طرق اللسان للحنك عند النطق بها .

النون : النون صوت مجهور متوسط بين الشدة والرخاوة . ففى النطق به يندفع الهواء من الرئتين محركاً الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق أولا ، حتى إذا وصل إلى أقصى الحلق هبط أقصى الحنك الأعلى فيسد بهبوطه فتحة الفم ويتسرب الهواء من التجويف الأنفى محدثاً فى مروره نوعاً من الحفيف لا يكاد يسمع . فهى كالميم تماماً غير أنه يفرق بينهما أن طرف اللسان مع النون يلتقى بأصول الثنايا العليا ، وأن الشفتين مع الميم هما العضوان اللذان يلتقيان .

ولبيان أن مجرى الهواء مع كل من الميم والنون هو التجويف الأنفى وحده يمكن أن تجرى التجربة الآتية :

يضع المتكلم بطاقة صغيرة بين أنفه وفمه وضعاً أفقياً كما هو مبين فى الشكل الآتى ، ثم يقترب من لوح بارد من الزجاج بحيث يلتقى طرف البطاقة بالزجاج ، وينطق أمامه بالصوتين مْ نْ عدة مرات فيلحظ أن تنفسه يتكاثف فوق الزجاج ويغبر الجزء الزجاجى المقابل للأنف فقط ؛ فى حين أنه لو أعاد التجربة ونطق بأصوات مثل : سْ جْ لرأى اغبرار الزجاج فى الجزء الذى أمام الفم فقط .



(شكل ٨)
ا ، ب — لوح من الزجاج
ﺟ — البطـاقة

وقد خصت كتب القراءات « النون » بالبحث الخاص ، وأفردت لها فصولا درست فيها أحكام للنون من إظهار و إخفاء و إدغام وقلب .

ويعرض للنون من الظواهر اللغوية ما لا يشركها فيه غيرها لسرعة تأثرها بما يجاورها من أصوات ، ولأنها بعد اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعاً فى اللغة العربية . والنون أشـد ما تـكون تأثراً بما يجاورها من أصوات حين تـكون مشكلة بالسكون ، حينئذ يتحقق اتصالها بما بعدها اتصالا مباشرا .

إظهار النون : لا تكاد النون تتأثر بأصوات الحلق حين تجاورها ، وربما كان هذا لبعد مخرج النون عن مخرج هذه الأصوات . فالنون فى عدم تأثرها بأصوات الحلق تماثل اللام ، فـكل من النون واللام لا يتأثر بأصوات

الحلق ؛ بل ينطق بهما خالصتين من كل شائبة . ويتوقف تأثر النون بما يجاورها من أصوات على نسبة قرب المخرج . فهى أكثر تأثراً بمجاورة أصوات طرف اللسان ووسطه من تأثرها بمجاورة تلك التى مخرجها أقصى اللسان . وليس المخرج وحده هو العامل الوحيد فى هذا التأثر ؛ بل لا بدّ معه من صفة الصوت ، فالنون التى هى من الأصوات المتوسطة أقل تأثراً بأصوات الشدة والرخاوة من تأثرها بمثيلاتها من الأصوات المتوسطة . ولا بد من مراعاة العاملين معاً للحكم على نسبة تأثر النون بما يجاورها .

هذا هو ما بنى عليه القدماء أحكام النون المشهورة . فالنون المشكلة بالسكون ينعدم تأثرها بأصوات الحلق ، لبعد المخرج والصفة بين النون وهذه الأصوات . على أن اشتراك العين مع النون فى صفة التوسط لم يكن مبرراً كافياً فى رأى القدماء لإحداث هذا التأثر . فرغم أن كلا من النون والعين من الأصوات المتوسطة لا نكاد نلحظ أى نوع من تأثر النون بمجاورتها للعين فى مثل « أنعمت » . وربما أثبتت البحوث المستقبلة نوعا من التأثر لم يفطن إليه من قبل .

ودرجات تأثر النون بالأصوات المجاورة تتراوح بين إظهارها خالصة دون شائبة مع أصوات الحلق ، وإدغامها إدغاماً كاملا فى الراء واللام إذ تفنى النون فيهما عند جمهور القراء نحو « من ربهم ، فإن لم تفعلوا » . وبين إظهار النون وإدغامها إدغاما كاملا ، نلحظ درجات مختلفة لتأثر النون هى :

١ — إخفاؤها .

٢ — إدغامها إدغاماً ناقصاً وهو فناء النون مع بقاء ما يشعر بها ، وهو الذى اصطلح على تسميته الإدغام بالغنة .

٣ — قلبها إلى ميم .

أما إظهار النون مع أصوات الحلق فنلحظه فى مثل :

من آمن — أنهارا — وانحرْ — أنعمت — من خير — من غلّ

فى مثل هذه الحالات لا نكاد نلحظ تأثر النون ، لأنها جاورت أصوات الحلق . واختلاف بعض القراء فى حكم النون حين تجاور الغين والخاء بين الإظهار والإخفاء يوضح لنا أن قرب مخرج الصوت المجاور للنون هو العامل الأساسى فى تأثرها ، لأن مخرج هذين الصوتين هو أدنى الحلق إلى الفم ، فمن نظر إليهما على أنهما أقرب إلى أصوات الفم أخفى النون معهما ، ومن نظر إليهما على أنهما من أصوات الحلق أظهرها .

ويظهر أن النون قد تطورت تطوراً كبيراً فى لهجات الكلام منذ القرون الإسلامية الأولى ؛ فمالت إلى أن تدغم مع الكثرة الغالبة من الأصوات الساكنة ، مما جعل القراء يبالغون فى الجهر بغنة النون مع أصوات الفم خشية أن تفنى النون فيها . وفناء النون ظاهرة شائعة فى اللغة العبرية أكثر من شيوعها فى اللغة العربية ؛ لأن النون تدغم مع الكثرة الغالبة من الأصوات الساكنة فى اللغة العبرية ، ويترتب على إدغامها فناؤها فناء تاما .

فإظهار النون هو الأصل فى اللغات السامية ، تطور فيما بعد إلى الإدغام . وميل النون إلى الإدغام أو الفناء فى غيرها يمكن أن يلحظ الآن فى اللهجات العربية الحديثة ، التى هى تطور للغة العربية الفصحى . فكما تطورت النون

فى العبرية حتى صارت إلى الفناء فى الكثرة الغالبة من أصواتها ، تطورت أيضاً فى اللهجات العربية الحديثة ، وإن اختلفت نسبة التطور فى كل منها .

ويظهر أن ميل النون إلى هذا التطور قد لوحظ منذ القرون الإسلامية الأولى ، مما جعل القراء يحرصون على وضع قواعد خاصة بالنون يفرقون بها بين النطق المروىّ عن فصحاء العرب للنون ، وبين ذلك النطق الذى شاع فى لهجات الكلام بعد اتساع رقعة المملكة العربية .

واللغة العبرية كالعربية لا يلحظ فيها ميل النون إلى الفناء فى أصوات الحلق ؛ وإنما مالت النون فى اللغتين منذ القدم إلى الفناء فى غير هذه الأصوات .

والوسيلة التى لجأ إليها القراء منذ القدم لإعطاء النون بعض حقها الصوتى مع غير أصوات الحلق هى الغنة . فالغنة التى حالت بين النون وفنائها فى غيرها من الأصوات هى وسيلة لجأ القراء إليها احترازاً من أن يقرأ القرآن كما يتكلم الناس فى أحاديثهم الدارجة . لأن النون فى تلك الأحاديث مالت فيما يظهر إلى الفناء فى غيرها من الأصوات دون أن تخلف أية إشارة تنبىء عنها .

وليست الغنة إلا إطالة لصوت النون مع تردد موسيقى محبب فيها . فالزمن الذى يستغرقه النطق بالغنة هى فى معظم الأحيان ضعف ما تحتاج إليه النون المظهرة . وليس هذا إلا للحيلولة بين النون والفناء فى غيرها . فالفرق بين النون المظهرة ونون الغنة فرق فى الكمية من ناحية ، وتطور النون وميلها إلى مخرج الصوت المجاور من ناحية أخرى .

إخفاء النون :

الدرجة التي تلي إظهار النون هي ما اصطلح القدماء على تسميته بالإخفاء، ويكون هذا مع خمسة عشر صوتاً عند جمهور القراء هي : القاف . الكاف . الجيم . الشين . السين . الصاد . الزاى . الضاد . الدال . التاء . الطاء . الذال . الثاء . الظاء . الفاء . وليس ما سموه بالإخفاء إلا محاولة الإبقاء على النون وذلك بإطالتها مما أدى إلى ما نسميه بالغنة . هذا إلى أننا نلحظ مع ما يسمونه بالإخفاء ميل النون إلى مخرج الصوت المجاور لها .

إدغام النون :

المرحلة الثالثة هي مرحلة فناء النون ، فقد تفنى النون تاركة وراءها نوعاً من الغنة وذلك عند مجاورتها للياء والواو . فاذا ولى النون المشكلة بالسكون ياء أو واو شددت الياء أو الواو ، ثم سمح عند النطق بهما أن يتخذ الهواء مجراه من طريقين معاً هما الفراغ الأنفي والفم . وهذا ما اصطلح المحدثون على تسميته Nazalisation أي أن يشترك الفراغ الأنفي مع مجرى الصوت من الفم . ويمكن أن نسمى مثل هذا الصوت بالصوت « الأنفمي[(١)] » . ومن اللغات ما تشيع فيها هذه الظاهرة كالفرنسية . وكذلك قد تشيع في بعض الشعوب كاليهود فهم يميلون للنطق بمعظم الأصوات من أنوفهم كأنهم خنف ، أي أن معظم أصواتهم أنفمية .

ومن الناحية الصوتية البحتة يمكن الإنسان أن يشرك مع مجرى الهواء

(١) أنفمي : كلمة منحوتة من كلمتين هما الأنف والفم .

فى الفم مجرى آخر فى الفراغ الأنفى . فيمكن النطق بالدال مثلا أنفمية بأن يتخذ الهواء مجراه بعد مروره بالحلق من طريقين ، بعضه يتسرب من الفراغ الأنفى والبعض الآخر من الفم ، مما يترتب عليه سماع صوت ثقيل على الأذن العربية ، غير مقبول فى نطق اللغة العربية وإن كان ضروريا فى نطق بعض اللغات الأخرى .

ففى نطق جميع الأصوات العربية ما عدا النون والميم يرتفع أقصى الحنك فيسد الفراغ الأنفى ولا يسمح لمرور الهواء فيه . ولكن أقصى الحنك يهبط مع النون والميم تاركا كل الهواء يمرّ من الفراغ الأنفى وحده ، مما يجعلنا نسمى كلا من النون والميم أصواتاً خيشومية . والحالة الوحيدة التى يسمح فيها بمرور الهواء من الأنف والفم معاً هى عند جمهور القراء حين تلتقى النون بكل من الياء والواو . فذلك الصوت الأنفى الذى نسمعه فى قراءة أمثال :

(مَنْ يقول — مِنْ وال) ليس نوناً بل هو ياء أنفمية أو واو أنفمية سمح عند النطق بها بأن يمر الهواء من كل من الأنف والفم ، فالنون فى المثل الأول قلبت ياء وفى الثانى واوا ، ولكن هذه الياء وتلك الواو قد شاب كلا منهما شائبة وهى النطق بهما من الأنف والفم معاً . فهو نوع من القلب تبعه إدغام ؛ ولكنه قلب ناقص إذ لم يتحول الصوت المقلوب إلى كل صفات الصوت المقلوب إليه ، مما جعل القدماء يسمون هذا النوع من الإدغام إدغاماً ناقصاً .

أما إذا ولى النون المشكلة بالسكون نون أخرى أو ميم ، ففى الحالة الأولى يجتمع عندنا نونان متجاورتان ، والغنة فى هذه الحالة ليست إلا لإطالة

الصوت المشدّد فلا يقل فى وضوحه عنه فى حالات الإخفاء . هذا إلى أن الغنة مع النون المشددة تهب نغمة موسيقية محببة إلى الأذن العربية وتقضى على تلك العادة الشائعة فى بعض اللهجات العربية الحديثة من الميل إلى قلب النون الأولى صوت لين ، أو همسها اكتفاء بجهر الثانية . ولم يكن من الضرورى إطالة الغنة فى هذه الحالة بنفس القدر الذى نحتاج إليه فى حالة الإخفـاء ، ولـكن الانسجام بين طول الصوت الواحد فى مواضعه المختلفة جعل القراء لا يفرقون بين الغنة فى هذا الموضع و بينها فى حالة الإخفاء .

أما إذا ولى النون ميم فالنون هنا تفنى فناء تاماً فى الميم ، فهو إدغام كامل لا ريب فى هذا . والغنة فى هذه الحالة هى غنة الميم المشددة .

قلب النون إلى ميم :

إذا جاورت النون الباء مجاورة مباشرة لاحظنا أن النون تتأثر بالباء وتقلب إلى صوت أنفى شـبيه بالباء فى المخرج ، وهذا الصوت هو الميم . أى أن النون تفقد مخرجها ولـكن لا تفقد صفتها الأنفية ، وذلك فى مثل (أنبئهم — من بعد) .

ويجدر بنا هنا الإشارة إلى أحكام الميم المشكلة بالسكون ؛ لأنها تشبه إلى حد ما أحكام النون من إدغام و إخفاء و إظهار .

إظهار الميم :

هو الشائع الغالب على هذا الصوت ، وذلك لأنه أقل تأثراً من النون بما يجاوره من الأصوات ، فاحتمال فناء الميم في غيرها نادر ، على أن القراء قد

نبهوا إلى الاحتراز من إخفاء الميم مع صوت الشفة المسمى بالفاء فى نحو : « هم فيها خالدون » لأن الميم مع هذا الصوت تميل فى بعض اللهجات العربية قديمها وحديثها إلى نوع من الإدغام نظراً لقرب المخرج .

إخفاء الميم :

لقد اختلف فى إخفاء الميم مع الباء ؛ ولكن الجمهور رجح إخفاءها معها ؛ لأن الباء صوت شديد يؤثر فى نظائره المجاورة أكثر مما يمكن أن تؤثر الفاء . فرغبة فى الاحتراز من فناء الميم فى الباء ظهرت الغنة التى تشعر بوجود الميم . ويؤيد هذا ماذهبنا إليه آنفاً من أن الغنة ليست إلا إطالة للصوت ، لئلا يفنى فى غيره . وغنة الميم قليلة الشيوع لا يلجأ إليها إلا قليلا ، وذلك حين يليها باء يخشى معها من فناء الميم فيها ، أو حين تكون مشددة نحو : يعتصم بالله — حمالة الحطب .

أما فى غير ذلك فقد أجمع القراء على إظهار الميم .

وقول القراء إن النون أصل فى الغنة من الميم قول لا يبرره إلا كثرة شيوع الغنة مع النون وقلتها مع الميم . وليس معناه كما فهم بعض القدماء أن النون أقرب إلى الخيشوم من الميم ، فعند النطق بكليهما يتخذ الهواء مجراه من الخيشوم فقط .

د — السين . الزاى . الصاد .

إننا نؤثر تسمية هذه الأصوات بالأصوات الأسلية ، رغم أن معظم كتب القراءات تسميها تسمية أخرى أكثر شهرة ، ولكنها أقل دقة وهى « أصوات الصفير » . وذلك لأن مجرى هذه الأصوات يضيق جداً عند مخرجها فتحدث

عند النطق بها صفيراً عالياً لا يشركها فى نسبة علو هذا الصفير غيرها من الأصوات . ولكن المحدثين من علماء الأصوات اللغوية يجمعون كل الأصوات التى تحدث فى نطقها ذلك الحفيف أو الصفير عالياً كان أو منخفضاً فى صعيد واحد ، فالأصوات التى يسمع لها صفير واضح فى رأى المحدثين هى :

ث . ذ . ز . س . ش . ص . ظ . ف

على أن هذه الأصوات تختلف فى نسبة وضوح صفيرها ، وأعلاها صفيراً هى السين والزاى والصاد ، مما يمكن أن يبرر تسميتها فى كتب القدماء بأصوات الصفير ، وقصر هذه الصفة عليها . وإذا أدركنا أن هذا الصفير ليس إلا نتيجة ضيق المجرى عند مخرج الصوت ، عرفنا أن المجرى عند مخرج (الثاء والذال والزاى والسين والشين والصاد والظاء والفاء) تختلف نسبة ضيقه تبعاً لعلو الصفير مع كل منها . فعلى قدر ضيق المجرى يكون علو الصفير ووضوحه . وأضيق ما يكون مجرى الهواء عند النطق بالسين والزاى والصاد .

لهذا كله نؤثر هنا تسمية السين والزاى والصاد بالأصوات الأسلية ، دون البحث فى سر هذه التسمية القديمة ؛ وإنما ننظر إليها على أنها مجرد تسمية لأصوات ذات صفة واحدة .

السين :

صوت رخو مهموس ، يختلف بعض الاختلاف فى مخرجه باختلاف اللهجات العربية ، بل وباختلاف الأفراد أحياناً . ففى بعض اللهجات يشتد صفير السين عنها فى البعض الآخر ؛ بل وقد يختلف وضع اللسان معها . على أن الفروق بين هذه الأنواع من السين ليست من الأهمية من الناحية اللغوية .

فنطق جميع اللهجات لها مقبول حسن . فاذا وصف لنا مخرج السين فى كتب القراءات القديمة على أنه من طرف اللسان فويق الثنايا السفلى ، كان هـذا الوصف فى مجموعه مقبولا ، لأنه يكون نوعا من السين لايراها العربى غريبة على سمعه . ولكن الكثرة الغالبة منا الآن ينطقون بالسين من أول اللسان (مشتركا معه طرف اللسان فى بعض الأحيان) حين يكاد يلتقى بأصول الثنايا العليا .

وتتميز السين أيضاً بأنه عند النطق بها تقترب الأسنان العليا من السفلى فلا يكون بينهما إلا منفذ ضيق جداً . كما أن السين العربية عالية الصفير إذا قيست بها السين فى بعض اللغات الأوربية كالإنجليزية مثلا .

فللنطق بالسين يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يأخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج وهو كما تقدم عند التقاء طرف اللسان بالثنايا السفلى أو العليا بحيث يكون بين اللسان والثنايا مجرى ضيق جداً يندفع خلاله الهواء فيحدث ذلك الصفير العالى . هذا إلى اقتراب الأسنان العليا من السفلى فى حالة النطق بهذا الصوت .

الزاى :

صوت رخو مجهور يناظر صوت السين ، فلا فرق بين الزاى والسين إلا فى أن الزاى صوت مجهور نظيره المهموس هو السين . فللنطق بالزاى يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه من الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج وهو التقاء أول اللسان (مشتركا مع طرفه

عند بعض الأفراد) بالثنايا السفلى أو العليا على النحو المتقدم شرحه مع السين .

الصاد :

صوت رخو مهموس ، يشبه السين فى كل شىء سوى أن الصاد أحد أصوات الإطباق (أنظر شكل ٧) . فعند النطق بالصاد يتخذ اللسان وضعاً مخالفاً لوضعه مع السين ، إذ يكون مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى ، مع تصعد أقصي اللسان وطرفه نحو الحنك ككل الأصوات المطبقة .

أصوات وسط الحنك :

الشين : صوت رخو مهموس ، عند النطق به يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق ثم الفم مع مراعاة أن منطقة الهواء فى الفم عند النطق بالشين أضيق منها عند النطق بالسين ، فإذا وصل الهواء إلى مخرج الشين وهو عند التقاء أول اللسان وجزء من وسطه بوسط الحنك الأعلى ، فلا بد أن يترك التقاء العضوين بينهما فراغاً ضيقاً يسبب نوعا من الصفير أقل من صفير السين ؛ وذلك لأن مجرى السين عند مخرجها أضيق من مجرى الشين عند المخرج . ويلاحظ عند النطق بالشين أن اللسان كله يرتفع نحو الحنك الأعلى كما أن الأسنان العليا تقترب من السفلى ، غير أن نسبة هذا الاقتراب أقل منه فى حالة النطق بالسين .

وللشين صوت نظير مجهور نسمعه أحياناً فى لغة الكلام عند بعض المصريين ، وذلك عند النطق بكلمة مثل « مشغول » . وهذا الصوت المجهور

يستعمله أهالى سوريا فى نطقهم للجيم العربية ، وهو نوع من الجيم الشديدة التعطيش يشبه ما يسمع فى مثل الكلمة الإنجليزية (measure) .

الجيم العربية الفصيحة : ليس لدينا من دليل يوضح لنا كيف كان ينطق بالجيم بين فصحاء العرب ، لأنها تطورت تطوراً كبيراً فى اللهجات العربية الحديثة . فطورا نسمعها فى ألسنة القاهريين خالية من التعطيش وهى جيم أقصى الحنك ، وحيناً نجدها وقد بولغ فى تعطيشها كما هو الحال فى سوريا ، وأخرى نجدها صوتاً آخر يبعد إلى حد كبير عن الصوت الأصلى مثل نطق بعض أهالى الصعيد حين ينطقون بها « دالا » .

ويظهر أن الجيم التى نسمعها الآن من مجيدى القراءة القرآنية ، هى أقرب الجميع إلى الجيم الأصلية ، إن لم تكن هى نفسها . والجيم التى نسمعها الآن من المجيدين للقراءة صوت مجهور ، يتكون بأن يندفع الهواء إلى الحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق والفم حتى يصل إلى المخرج : وهو عند التقاء وسط اللسان بوسط الحنك الأعلى التقاء يكاد ينحبس معه مجرى الهواء . فإذا انفصل العضوان انفصالا بطيئاً ، سمع صوت يكاد يكون انفجارياً هو الجيم العربية الفصيحة . فانفصال العضوين هنا أبطأ قليلا منه فى حالة الأصوات الشديدة الأخرى ، ولهذا يمكن أن تسمى الجيم العربية الفصيحة صوتاً قليل الشدة .

وتطور هذه الجيم العربية إلى الجيم القاهرية ، أو إلى « الدال » فى لهجة بعض أهالى صعيد مصر تطور طبيعى ، تبرره القوانين الصوتية ؛ لأنها فى حالة تطورها إلى الجيم القاهرية لم تزد على أن تدرجت بمخرجها إلى الوراء قليلا فقربت

من أقصى الحنك ، وبهذا زادت شدة وانقطع ما يسمى عادة بالتعطيش . أما فى تطورها إلى « الدال » فقد اقتربت بمخرجها إلى الأمام ؛ وبذلك زادت شدة أيضاً وانقطع تعطيشها .

على أن الجيم الأصلية لا تزال تسمع حتى الآن فى بعض لهجات صعيد مصر ومن بعض القبائل العربية السودانية .

وأبناء الأمم العربية فى العصر الحديث يختلفون فى نطق الجيم حين تعرض لهم فى نصوص فصيحة : فمعظم المصريين ينطقون بها شديدة لا يشوبها شىء من رخاوة ومخرجها فى نطقهم أقصى الحنك . وبعض البدو ينطقون بالجيم الفصيحة التى هى مرحلة وسطى : فيها شىء من شدة الدال وشىء من التعطيش ولذا ترن فى الآذان كأنما هى تبدأ بدال وتنتهى بجيم معطشة . أما أهل الشام وبعض المغاربة فينطقون بها كثيرة التعطيش خالية من الشدة . للجيم إذن من الناحية الصوتية ثلاثة أنواع : شديدة خالصة الشدة وتلك هى الجيم المصرية ومتوسطة بين الشدة والرخاوة فيها من الصفتين معاً وتلك هى الفصيحة ، وأخيراً تلك الجيم الرخوة الخالصة الرخاوة وهى الجيم الشامية . ومخرج النوعين الأخيرين وسط الحنك .

أصوات أقصى الحنك :

الكاف : صوت شديد مهموس ، يتكون بأن يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق أولا ، فإذا وصل إلى أقصى الفم قرب اللهاة انحبس الهواء انحباساً كاملا ، لاتصال

أقصى اللسان بأقصى الحنك الأعلى ، فلا يسمح بمرور الهواء . فإذا انفصل العضوان انفصالا مفاجئاً انبعث الهواء إلى خارج الفم محدثاً صوتاً انفجارياً هو ما نسميه بالكاف . غير أنه يظهر أن انفصال العضوين فى النطق بالكاف العربية أبطأ منه فى كثير من اللغات الأوربية ، التى فيها الكاف أكثر شدة ، فلا يسمع لانفجارها ذيول صوتية .

وللكاف نظير مجهور هو الجيم القاهرية التى نسمعها أيضاً فى اللغة العبرية والسريانية ، فهو صوت سامى شائع فى معظم اللهجات السامية . وهذا الصوت لا يفترق من الكاف فى شىء سوى أن الجيم مجهورة والكاف مهموسة ؛ ولكن انفصال العضوين فى الجيم القاهرية فجائى ، وهى لهذا أكثر شدة من الكاف .

<u>القاف</u> : القاف كما ينطق بها الآن فى مصر بين مجيدى القراءات صوت شديد مهموس ، رغم أن جميع كتب القراءات قد وصفتها بأنها أحد الأصوات المجهورة . وقد تطورت القاف فى اللهجات العربية الحديثة تطوراً ذا شأن ، لا نستطيع معه أن نؤكد كيف كان ينطق بها بين الفصحاء من عرب الجزيرة فى العصور الإسلامية الأولى . على أننا نستنتج من وصف القدماء لهذا الصوت أنه كان يشبه إلى حد كبير تلك القاف المجهورة التى نسمعها الآن بين القبائل العربية فى السودان و بعض القبائل فى جنوب العراق . فهم ينطقون بها نطقاً يخالف نطقها فى معظم اللهجات العربية الحديثة ، إذ نسمعها منهم نوعاً من « الغين » . والذين مارسوا التدريس لأبناء السودان يذكرون كيف يخلط التلميذ السودانى بين القاف والغين فى نطقه وفى إملائه .

لهذا نفترض هنا أن القاف الأصلية كانت تشبه ذلك الصوت المجهور الذى نسمعه الآن من بعض القبائل السودانية ، ثم همس مع توالى الزمن فأدى إلى ما نعهده فى قراءتنا . إذ لا فرق بين نطق السودانيين للقاف و بين نطق المجيدين للقراءة من المصريين لها إلا فى أنها مجهورة عند السودانيين ، مهموسة عند المصريين أو بعبارة أخرى مهموسة في معظم اللهجات العربية الحديثة .

ومن الممكن أن نفترض للقاف القديمة فرضاً آخر ، هو أنها كانت تشبه الجيم القاهرية ولـكنها أعمق منها فى أقصى الفم . و يستأنس لهذا الرأى بنطق معظم البدو الآن للقاف مثل هذا النطق .

وقد تعرض ابن خلدون فى مقدمته لنطق القاف بين البدو فى عصره ووصفه وصفاً غامضاً بقوله : إنه بين القاف والـكاف . و يظهر أن ابن خلدون أراد بهـذا ذلك النطق الذى لا نزال نسمعه بين البدو ، وهو ما يشبه الجيم القاهرية . و يفهم من كلام ابن خلدون أن هذا المنطق كان شائعاً بين القرشيين حين جاء الإسـلام ، بل يروى ابن خلدون أن فقهاء أهل البيت وهم الشيعة كانوا ينسبون هذا النطق للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولـكنه يعقب على مثل هذا القول بأنه مجرد زعم ليس هناك من دليل عليه . ولا ندهش لهذا الموقف الذى وقفه ابن خلدون ، وهو السنى المشهور — من الفقهاء الشيعيين .

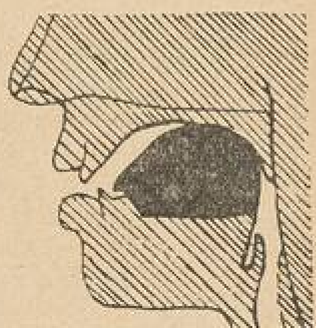
و يظهر أن معظم القبائل البدوية التى عاشت فى المغرب أيام ابن خلدون كانت من القبائل الحجازية التى هاجرت فى القرن الخامس الهجرى إلى تلك البلاد وجاءت معها بهذا النطق الخاص للقاف . ولذلك نرجح أن نطق القاف كالجيم القاهرية قديم ، وربما كان شائعاً بين بعض القبائل الحجازية أيام النبى

صلى الله عليه وسلم . أما موقف القرشيين بصفة عامة والنبي وأصحابه بصفة خاصة من هذا النطق فأمر يحتاج إلى تحقيق .

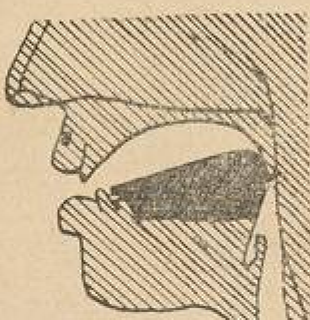
فللقاف فى القراءات القرآنية بين المتكلمين باللغة العربية نطقان : أحدهما مهموس وهو الأكثر شيوعاً ، والآخر مجهور . ولكن القاف فى اللهجات الدارجة قد تطورت تطوراً آخر أبعد أثراً ؛ فهى تسمع فى لغة الكلام بمصر والشام همزة ، وتسمع جيما كالجيم القاهرية فى بعض البيئات بصعيد مصر و بين كثير من قبائل البدو فى الصحراء .

وتطور الصوت بتغير مخرجه يكون بأحد طريقين ، إما بانتقال المخرج إلى الوراء أو إلى الأمام ، باحثاً الصوت فى انتقاله عن أقرب الأصوات شبهاً به من الناحية الصوتية . فتعمق القاف فى الحلق عند المصريين لا يصادف من أصوات الحلق ما يشبه القاف إلا الهمزة ، لوجود صفة الشدة فى كل منهما . فليس غريباً إذن أن تطورت القاف فى لغة الكلام عندنا إلى الهمزة ؛ فليس بين أصوات الحلق صوت شديد إلا الهمزة . أما فى الانتقال بمخرج القاف إلى الأمام فنجد أن أقرب المخارج لها هو مخرج الجيم القاهرية والكاف ؛ فلا غرابة أن تتطور القاف إلى أحدهما . وقد رجح تطور القاف فى لغة البدو و بعض أهالى صعيد مصر إلى الجيم القاهرية ، أن القاف فى الأصل صوت مجهور فحين تتطور تنتقل إلى صوت مجهور أيضاً يشبهها صفة . لهذا اختارت القاف فى تطورها الأمامى الجيم دون الكاف ، لأن كلا من القاف الأصلية والجيم القاهرية صوت شديد مجهور . على أنه إذا تمّ تطور أمامى آخر فى المستقبل للقاف كما ننطق بها الآن فى قراءتنا ، فسيكون حتما بأن تقلب كافاً ، لأن كليهما صوت شديد مهموس .

فللنطق بالقاف كما نعهدها فى قراءاتنا يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق حتى يصل إلى أدنى الحلق من الفم ، وهناك ينحبس الهواء باتصال أدنى الحلق (بما فى ذلك اللهاة) بأقصى اللسان ثم ينفصل العضوان انفصالا مفاجئاً ، فيحدث الهواء صوتاً انفجارياً شديداً ؛ فلا فرق بين القاف كما ننطق بها ، و بين الكاف إلا فى أن القاف أعمق قليلا فى مخرجها . ولذلك يمكن أن تسمى القاف صوتاً لهوياً نسبة إلى اللهاة (انظر الشكلين الآتيين) .



(شكل ٩)
وضع اللسان مع الكاف



(شكل ١٠)
وضع اللسان مع القاف

الأصوات الحلقية :

(الغين . الخاء . العين . الحاء . الهاء . الهمزة)

تتميز الفصيلة السامية من اللغات الأخرى بهذه الأصوات أو بمعظمها . وتلعب هذه الأصوات دوراً هاماً فى نحو اللغات السامية . والمحدثون من علماء الأصوات اللغوية لم يحاولوا حتي الآن تحديد وظيفة الحلق بين أعضاء الصوت ،

ولعل البحوث المستقبلة تكشف لنا عن أسرار جديدة لأصوات الحلق .

وأصوات الحلق ، ما عدا الهمزة ، كما يصفها القدماء والمحدثون أصوات رخوة ، أى يسمع لها نوع من الحفيف عند النطق بها .

<u>الغين</u> : صوت رخو مجهور مخرجه أدنى الحلق إلى الفم . فعند النطق به يندفع الهواء من الرئتين ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق حتى يصل إلى أدناه إلى الفم ، وهناك يضيق المجرى فيحدث الهواء نوعاً من الحفيف ، وبذلك تتكون الغين .

<u>الخا</u> : تشترك الخاء مع الغين فى كل شىء ، غير أن الغين صوت مجهور نظيره المهموس هو الخاء . فكل من الغين والخاء صوت رخو ومخرجهما واحد . فعند النطق بالخاء يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فلا يحرك الوترين الصوتيين ، ثم يتخذ مجراه فى الحلق حتى يصل إلى أدناه إلى الفم .

<u>العين</u> : عدّ هذا الصوت عند القدماء من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة . ولعل السر فى هذا هو ضعف ما يسمع لها من حفيف إذا قورنت بالغين . وضعف حفيفها يقربها من الميم والنون واللام ويجعلها من هذه الأصوات التى هى أقرب إلى طبيعة أصوات اللين.

والعين صوت مجهور مخرجه وسط الحلق . فعند النطق به يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فيحرك الوترين الصوتيين حتى إذا وصل إلى وسط الحلق ضاق المجرى ؛ ولكن ضيق مجراه عند مخرجه أقل من ضيقه مع الغين ، مما جعل العين أقل رخاوة من الغين .

<u>الحاء</u> : هو الصوت المهموس الذى يناظر العين ، فمخرجهما واحد ولافرق

بينهما إلا فى أن الحاء صوت مهموس نظيره المجهور هو العين .

الهاء : صوت رخو مهموس ، عند النطق به يظل المزمار منبسطاً دون أن يتحرك الوتران الصوتيان ؛ ولـكن اندفاع الهواء يحدث نوعاً من الحفيف يسمع فى أقصى الحلق أوداخل المزمار. ويتخذ الفم عند النطق بالهاء نفس الوضع الذى يتخذه عند النطق بأصوات اللين . والهاء عادة صوت مهموس يجهر به فى بعض الظروف اللغوية الخاصة . وفى هـــذه الحالة يتحرك معها الوتران الصوتيان ، كما يسمع لهذه الهاء المجهورة نوع من الحفيف لولاه لـكانت هذه الهاء صوت لين عادى .

وعند النطق بالهاء المجهورة يندفع من الرئتين كمية كبيرة من الهواء أكبر مما يندفع مع الأصوات الأخرى ؛ فيترتب عليه سماع صوت الحفيف مختلطاً بذبذبة الوترين الصوتيين .

الهمزة : رغم الاعتراف بها كصوت أساسى فى كثير من لغات العالم لم تحظ برمز خاص بها فى رسم تلك اللغات . ففى بعض اللهجات الإنجليزية ينطق بالتاء همزة . وفى اللغة الدنيمركية تفرق الهمزة كصوت لا كرمز ، بين الـكلمتين فى المعنى ، فقد لا يكون هناك فرق صوتى بين كلمتين مختلفتى المعنى سوى وجود الهمزة فى نطق أحدهما مثل : « هَنْأ » التى تعنى « كلباً » ، مع « هَنْ » التى تعنى الضمير « هى » . وكلا الـكلمتين تـكتبان على صورة واحدة ورموز واحدة رغم اختلاف نطقهما .

وشيوع الهمزة فى اللغات السامية أكثر كثيراً منها فى الفصيلة الهندية الأوربية .

والهمزة رغم شيوعها فى اللغة العربية لم يرمز لها الرسم العربى القديم برمز خاص ككل الأصوات الساكنة . ولتصرف القدماء فى الهمزة بالتخفيف — إبدالا ونقلا و إدغاماً — وتسهيلها بين بين ، كتبت بحسب ما تخفف به . فأحيانا كتبت ألفاً وطوراً واواً أو ياء ، وثالثة لم يرمز لها بأى رمز . فالرمز الذى نعرفه الآن للهمزة حديث بالنسبة للرسم العثمانى .

أما مخرج الهمزة المحققة فهو من المزمار نفسه ؛ إذ عند النطق بالهمزة تنطبق فتحة المزمار انطباقاً تاماً فلا يسمح بمرور الهواء إلى الحلق ، ثم تنفرج فتحة المزمار فجأة فيسمع صوت انفجارى هو ما نعبر عنه بالهمزة .

فالهمزة إذن صوت شديد ، لا هو بالمجهور ولا بالمهموس ، لأن فتحة المزمار معها مغلقة إغلاقاً تاماً ، فلا نسمع لهذا ذبذبة الوترين الصوتيين ، ولا يسمح للهواء بالمرور إلى الحلق إلا حين تنفرج فتحة المزمار ، ذلك الانفراج الفجائى الذى ينتج الهمزة .

ولا شك أن انحباس الهواء عند المزمار انحباساً تاماً ثم انفراج المزمار فجأة ، عملية تحتاج إلى جهد عضلى قد يزيد على ما يحتاج إليه أى صوت آخر ، مما يجعلنا نعد الهمزة أشد الأصوات ، ومما جعل للهمزة أحكاماً مختلفة فى كتب القراءات ليس هنا مجال تفصيلها .

وقد مالت اللهجات العربية فى العصور الإسلامية إلى تخفيف الهمزة والفرار من نطقها محققة ، لما تحتاج إليه حينئذ من جهد عضلى . فالهمزة المشكلة بالسكون تسقط من الكلام و يستعاض عن سقوطها بإطالة صوت اللين قبلها ، فينطق بعض القراء : «يومنون» فى « يؤمنون » ؟ « ذيب » فى « ذئب » ؟

« راس » فى « رأس » .

والهمزة المتحركة وقبلها متحرك ، متعددة الأحكام ، وقد فصلت أحكامها فى المطولات من كتب القراءات . على أن الوسائل التى لجأ إليها القراء لتخفيف هذا النوع من الهمزة تتلخص فى :

١ — سقوطها من الكلام والاستعاضة عنها باطالة صوت اللين قبلها . فكأنها كالمشكلة بالسكون حينئذ . وأحياناً لا يعوض عن سقوطها بشىء كما فى قراءة « مستهزون » فى « مستهزئون » .

٢ — تسهيل الهمزة بيْن بيْن : هذا هو تعبير القدماء من القراء عن تلك الحالة الغامضة لنطق الهمزة . فقد قالوا إن تسهيل الهمزة المتحركة بأن ينطق بها ، لا محققة ، ولا حرف لين خالص بل بيْن بيْن . فالهمزة المكسورة ينطق بها فى حالة تسهيلها بين بين ، لا محققة ، ولا ياء خالصة . هكذا قال القدماء من القراء . أما التكييف الصوتى لهذه الحالة فليس من اليسير الجزم بوصفه وصفاً علمياً مؤكداً . وإذا صح النطق الذى سمعته من أفواه المعاصرين من القراء ، تكون هذه الحالة عبارة عن سقوط الهمزة من الكلام ، تاركة حركة وراءها . فالذى نسمعه حينئذ لا يمت إلى الهمزة بصلة بل هو صوت لين قصير يسمى عادة حركة الهمزة ، من فتحة أو ضمة أو كسرة . ويترتب على هذا النطق التقاء صوتى لين قصيرين ، وهو ما يسميه المحدثون Hiatus . ويغلب فى معظم اللغات أن تؤدى مثل هذه الحالة إلى صوت لين انتقالى ، ينشأ من الحركتين أو صوتى اللين القصيرين .

والذى يؤيد ما نذهب إليه بشأن نطق الهمزة بين بين ، أن مثل هذه

القراءة لا تكون إلا حين تحرك الهمزة بحركة ما ، أما الهمزة المشكلة بالسكون فلا تقرأ بين بين .

على أن من القراء من يجعلون تلك الحركة التى خلفتها الهمزة بعد سقوطها من النطق ، حركة مهموسة فتسمع حينئذ كما لو أنها نوع من الهاء . ففى قراءة قوله تعالى : « أأعجمى ... » قراءة بين بين للهمزة الثانية ، تسمع العبارة كأنما هى « أهعجمى » .

وإذا كانت الهمزة المفردة قد احتاجت إلى جهد عضلى جعل اللهجات العربية تفر منها بتسهيلها مرة ، وسقوطها مرة أخرى ، فمما لاشك فيه أن توالى همزتين أشق ، ويحتاج إلى جهد عضلى أكثر فى نطقهما . لذلك أفردت كتب القراءات أبواباً لأحكام الهمزتين المتواليتين يمكن الإشارة إليهما فيما يلى :

١ — إذا كانت الهمزة الثانية مشكلة بالسكون ، سقطت من الكلام واستعيض عنها بإطالة حركة الأولى مثل :

آمن . أوذى . إيت .

٢ — أما إذا تحركت الهمزتان ، فقد لجأ كثير من القراء إلى تخفيض ذلك الجهد العضلى فى نطقهما محققتين ، بأن نطق بعضهم بالهمزة الثانية مسهلة بين بين ، ولكن الآخرين أطالوا حركة الهمزة الأولى ليصير النطق بالثانية هيناً يسيراً . وهذه الحالة الأخيرة هى التى عبر عنها القدماء بقولهم إدخال ألف بين الهمزتين .

الفصل الخامس

(١)

طول الصوت اللغوى

مما عنى به المحدثون فى تجاربهم معرفة طول الصوت اللغوى ، سواء كان صوت لين أو صوتاً ساكناً . ونعنى بطول الصوت الزمن الذى يستغرقه النطق بهذا الصوت ، مقدراً عادة بجزء من الثانية . فقد قدروا أن « الدال » المتطرفة فى الكلمات الإنجليزية تستغرق فى النطق بها حوالى ٠٥، من الثانية ، فى حين أن صوت اللين (*a*) يستغرق مدة أطول هى حوالى ٤٣ ، من الثانية.

ولطول الصوت أهمية خاصة فى النطق باللغة نطقاً صحيحاً . فالإسراع بنطق الصوت ، أو الإبطاء به ، يترك فى لهجة المتكلم أثراً أجنبياً عن اللغة ينفر منه أبناؤها . وليس من الضرورى أن يعرف المرء مقدار الزمن الذى يستغرقه نطق كل صوت ليصح نطقه ؛ بل إن المران السمعى يكفى عادة فى ضبط هذا الطول دون حاجة إلى المقاييس الآلية .

وطول الصوت إما أن يكون طبيعياً فيه ، أو مكتسباً . ويعنينا أولا شرح الطول الطبيعى ، فأصوات اللين بطبيعتها أطول من الأصوات الساكنة . على أنه حين قيست أصوات اللين وجد أن الفتحة أطول من الكسرة والضمة . ويلى أصوات اللين فى الطول الطبيعى الأصوات

الأنفية : وهى النون والميم ، فهما من أطول الأصوات الساكنة ، ثم الأصوات الجانبية كاللام ، ثم المكررة كالراء ؛ ثم الأصوات الرخوة ذات الصفير أو الحفيف .

وأقل الأصوات الساكنة طولا هى الأصوات الشديدة أو الانفجارية .

وأوضح ما يكون طول الصوت اللغوى فى أصوات اللين ، لأن الفروق فى طولها تؤثر تأثيراً كبيراً فى النطق الصحيح للغة . هذا إلى أن كل صوت لين فى لغة من اللغات يمكن أن يقسم ، من حيث الزمن الذى يستغرقه ، إلى نوعين : طويل وقصير . بل قد يكون من الممكن أن يقسم إلى ثلاثة أنواع متميزة : طويل ومتوسط وقصير . أما الأصوات الساكنة فالفروق بينها ليست من القدر بحيث تحتم علينا مثل هذا التقسيم .

واللغويون عادة يقسمون أصوات اللين إلى نوعين فقط : قصير ، وطويل فالفتحة مطلقة صوت لين قصير ، فاذا أصبحت ما يسمى بالألف الممدودة فهى صوت لين طويل . والفرق عادة بين الفتحة الطويلة والقصيرة هو أن الزمن الذى تستغرقه الأولى ضعف ذلك الذى تستغرقه الثانية .

ومن حسن الحظ أن أصوات اللين العربية لا تختلف مقاييسها حين تطول ، كما يحدث فى كثير من أصوات اللين الإنجليزية . فلا يؤثر طول الصوت العربى فى مقياسه ؛ بل يبقى هو هو طال الصوت أو قصر .

أما العوامل المكتسبة التى تؤثر فى طول الصوت اللغوى فأهمها : النبر[١] ونغمة الكلام ، وربما كان لنحو اللغة أثر أيضاً فى طول الصوت أحياناً .

---

(١) أنظر القسم الثالث من هذا الفصل .

فالصوت المنبور أطول منه حين يكون غير منبور . وانسجام الكلام فى نغماته يتطلب طول بعض الأصوات وقصر البعض الآخر ، إذ يميل الصوت المنبور إلى القصر إذا وليه صوت غير منبور ، وذلك تحقيقاً لرغبة الكلام فى أن تتقارب مقاطعه المنبورة بعضها من بعض . فاذا كثرت المقاطع غير المنبورة بعد مقطع منبور ، قلت من طوله . فالألف فى كلمة « كتاب » أطول منها فى العبارة « كتاب تلميذ » .

وقد عنى القراء منذ القدم بإطالة بعض الأصوات الساكنة فى اللغة العربية . وقد ظهر هذا جلياً فى حديثهم عن أحكام النون والميم الساكنتين . فقد حاولوا أن يحولوا بين هذين الصوتين وفنائهما فيما بعدهما من الأصوات ، فأطالوا الميم حين يليها الباء وحين تكون مشددة ، كما أطالوا النون مع خمسة عشر صوتاً هى التى عرفت بالأصوات التى تخفى معها النون . ومظهر هذه الإطالة فيما سماه القدماء بالغنة ، إذ ليست الغنة إلا إطالة فى النون والميم كما فصلنا هذا فى الكلام عن هذين الصوتين . فاذا كان بعد النون المشكلة بالسكون ياء أو واو ، أصبح كل منهما صوتاً أنفمياً ، وشددت الياء والواو ، ولكنهما يصبحان فى هذه الحالة أطول من أى صوت مشدد آخر ، لأن طولهما هنا كطول النون المشددة . فالنون فى مثل : « كنتم » أطول منها فى « إنْ هو » وكذلك الميم فى مثل « يعتصم بالله » أطول منها فى « وهم يوقنون » وكذلك الياء المشددة التى نتجت من إدغام النون فيها فى نحو « من يعمل » ضعف اللام المشددة فى مثل « فان لم » .

فما سماه القدماء بإخفاء النون والميم هو في الحقيقة إطالة لهذين الصوتين ،

رغبة في الإبقاء عليهما ، ومنعهما من الفناء فيما يليهما من الأصوات ؛ كما شاع فى كثير من اللهجات العربية قديمها وحديثها .

وكذلك حرص القدماء على جهر الأصوات الشديدة أمثال « الدال والباء » ، لما شاع فى نطق بعض اللهجات العربية القديمة من ميل الناطقين بها إلى همس كل صوت شديد . فالصوت الشديد المجهور مال دائماً إلى أن يصبح مهموساً ، ولا سيما إذا كان مشكلا بالسكون — متطرفاً أو فى وسط الكلمة — وقد جاوره صوت مهموس . لهذا أطالوا الأصوات الشديدة المجهورة ليظهروا جهرها ، ويحولوا بينها وبين أن تصبح مهموسة ، ولا سيما إذا كانت مشكلة بالسكون . وهذه الظاهرة هى التى سماها القدماء بالقلقلة . فقلقلة الباء المشكلة بالسكون ليست إلا إطالة لها مع إضافة صوت لين قصير جداً يشبه الكسرة . وأصوات القلقلة كما رواها القدماء هى :

القاف . الطاء . الباء . الجيم . الدال

والقاف والطاء اللتان رمى القدماء إلى قلقلتهما ليستا القاف والطاء اللتين نسمعها الآن فى قراءة المقرئين فى هذا العصر ؛ وإنما هما القاف والطاء كما كان ينطق بهما مجهورين . فالقاف كان ينطق بها كالغين أو الجيم القاهرية ، والطاء كان ينطق بها كالضاد الحديثة التى نسمعها الآن من قرائنا ، وقد أشرنا إلى هذا من قبل (١)

فالقاف والطاء الأصليتان هما صوتان مجهوران حرص القدماء على

(١) أنظر صفحة ٥٨ و ٧٧

جهرهما ؛ ولكن رغم هـــذا الحرص قد تطورا إلى صوتين مهموسين فى قراءاتنا الآن .

أما أصوات اللين العربية ، فطوراً تقصر ، وذلك مع الجزم كما فى نحو (ينام . يقوم . يبيع . يرضى . يسمو . يرمى) حين يدخل على هذه الأفعال أداة جزم تصبح (ينمْ . يقمْ . يبعْ . يرضَ . يسمُ . يرمِ) ، فـكل الذى أصابها هو أن صوت اللين الطويل أصبح قصيراً . وهذه الظاهرة مطردة فى اللغة العربية ، تحتمها قواعد اللغة .

وكذلك أباح القراء قصر صوت اللين فى حالة الوقف ، بما سموه الروم . فبدلا من الوقف بالسكون على أواخر الكلمات أباح القراء الوقف بنفس الحركة ، بعد تقصيرها إلى صوت لين قصير جداً لا يكاد يسمع إلا عن قرب . فالقراء يسمحون بالوقف على « نستعين » فى (إياك نعبد وإياك نستعين) بضمة قصيرة جداً ، وسموا هذه الظاهرة الوقف مع الروم . وكما يكون الروم مع الضمة يـكون أيضاً مع الـكسرة والفتحة .

فمراتب الطول فى أصوات اللين فى اللغة العربية ثلاثة : أطولها فى مثل « يسمو » ، يليها « لم يسمُ » ثم يلى هذا الوقف بالروم على مثل «نستعين» ، وليس الفرق بين هذه المراتب الثلاث إلا فرقاً فى الـكمية .

وأصوات اللين الطويلة فى اللغة العربية قد يزاد طولها ضعفــاً أو ضعفين حين يليها همزة أو صوت مدغم ، سواء كان هذا فى كلمة واحدة وهو ما اصطلح القدماء على تسميته بالمد المتصل ، أو فى كلمتين وهو المد المنفصل .

وقد عنى القراء بهذه الإطالة عناية كبيرة ، أفردوا لها أبواباً وفصولا فى

كتبهم ووضعوا لها مراتب متعددة قاسوها أحياناً بالألفات ، وحيناً بالعدّ على الأصابع ؛ ولكنْ يظهر أن نسبة هذه الإطالة كانت ولا زالت موضع خلاف بينهم ، كل منهم يحددها و يقيسها قياساً اجتهادياً . على أنهم جميعاً قد أجمعوا على الإطالة مع اختلاف فى نسبتها . ومن الواجب أن تحدد هذه النسبة تحديداً علمياً ، أدق مما هو شائع الآن بين قرائنا . ولن يكون هذا إلا بتجارب حديثة تستخدم فيها آلات القياس الحديثة . ولعل بحوث المستقبل تكفل لنا هذا ، لأن طول الصوت اللغوى من أبرز الظواهر اللغوية التى يترتب عليها النطق الصحيح بهذه اللغة . فالقراء فى مثل « يشاء » وفى مثل « ولاالضالين » قد يطيلون صوت اللين فوق طوله أضعافاً . وهذا النوع من الإطالة لا يراعى إلا فى القراءات القرآنية ، فلا يكون فى الشعر العربى ، ويندر أن يقع فى النثر .

أما السر فى هذه الإطالة فهو — كما يبدو لى — الحرص على صوت اللين وطوله ، لئلا يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام . لأن الجمع بين صوت اللين والهمزة كالجمع بين متناقضين ، إذ الأول يستلزم أن يكون مجرى الهواء معه حراً طليقاً وأن تكون فتحة المزمار حين النطق به منبسطة منفرجة ، فى حين أن النطق بالهمزة يستلزم انطباق فتحة المزمار انطباقاً محكما يليه انفراجها فجأة . فاطالة صوت اللين مع الهمزة يعطى المتكلم فرصة ليتمكن من الاستعداد للنطق بالهمزة التى تحتاج إلى مجهود عضلى كبير ، و إلى عملية صوتية تباين كل المباينة الوضع الصوتى الذى تتطلبه أصوات اللين .

وهذا هو نفس السر فى إطالة صوت اللين حين يليه صوت مدغم ، لأن

طبيعة اللغة العربية ونسجها تستلزم قصر أصوات اللين الطويلة حين يليها صوتان ساكنان ؛ لحرصاً على صوت اللين ، وإبقاء على ما فيه من طول ، بولغ فى طوله لئلا تصيبه تلك الظاهرة التى شاعت فى اللهجات العربية قديمها وحديثها ، من ميل صوت اللين إلى القصر حين يليه صوتان ساكنان .

والصوت اللغوى قد يتأثر من حيث طوله بما يجاوره من الأصوات . ومما لاحظه المحدثون أن صوت اللين يزداد طولا إذا وليه صوت مجهور . فصوت اللين (i) فى الكلمة الإنجليزية (bid) أطول منه فى الكلمة (bit) ، وكذلك لاحظوا أن الصوت الساكن يكون أطول إذا سبقه صوت لين قصير ، والعكس بالعكس . فالنون فى (bin) أطول منها فى (men) ، والنون فى (man) أقصر من الاثنين ، لأن صوت اللين (a) أطول من (e) وهذه أطول من (i) .

على أن بعض اللغات لا تتأثر أصواتها من حيث الطول بمجاورة بعضها لبعض ؛ بل لكل صوت مقياس محدود لا يتغير بمجاورة أنواع أخرى من الأصوات .

— ٢ —

المقطع الصوتى

يحتاج الباحث إلى تقسيم الكلام المتصل إلى مقاطع صوتية ؛ عليها تبنى فى بعض الأحيان الأوزان الشعرية ، وبها يعرف نسج الكلمة فى لغة من اللغات .

والمقاطع الصوتية نوعان : متحرك (open) وساكن (closed) . والمقطع المتحرك هو الذى ينتهى بصوت لين قصير أو طويل ، أما المقطع الساكن فهو الذى ينتهى بصوت ساكن . فالفعل الماضى الثلاثى مثل « فتح » يتكون من ثلاثة مقاطع متحركة ، فى حين أن مصدر هذا الفعل « فتحْ » يتكون من مقطعين ساكنين .

وقد وجد المحدثون صعوبة فى تحديد بدء المقطع ونهايته ، ولكنهم استطاعوا دائماً تحديد وسطه أو أظهر جزء فيه .

فالكلام المتصل يتكون من أصوات لغوية تختلف فى نسبة وضوحها السمعى[1] . وترتب على هذه النسبة أن قسموا الأصوات إلى قسمين رئيسيين : هما الأصوات الساكنة وأصوات اللين . وقد اتضح لهم أن الأصوات الساكنة بطبيعتها ، أقل وضوحاً فى السمع من أصوات اللين . على أن المحدثين قد لاحظوا أن اللام والنون والميم أصوات عالية النسبة فى الوضوح السمعى ، وتكاد تشبه أصوات اللين فى هذه الصفة ، مما جعلهم يسمونها أشباه أصوات اللين .

وقد شاهد المحدثون أنه فى حالة تسجيل الذبذبات الصوتية لجملة من الجمل فوق لوح حساس ، يظهر أثر هذه الذبذبات فى شكل خط متموج :

ويتكون هذا الخط من قمم ووديان . وتلك القمم هى أعلى ما يصل إليه الصوت من الوضوح السمعى ، والوديان هى أقل ما يصل إليه هذا الصوت

---

(١) أنظر صفحة ٣٠ .

من الوضوح . وأصوات اللين تحتل فى معظم الأحيـان ، تلك القمم ، تاركة الوديان للأصوات السا كنة . وقد وجد المحدثون أن اللام والنون والميم تحتل القمم فى بعض الأحيان ، مثلها فى هذا مثل أصوات اللين . ولهذا اعتبروا أصوات اللين ومعها اللام والنون والميم أصواتاً مقطعية ، لأنهـا هى التى تحدد المقاطع الصوتية فى الـكلام . وقسموا لهذا مقاطع الجملة حسب ما فيهـا من أصوات اللين ، وفى قليل من الأحيان يضطرون إلى عد ما اشتملت عليه الجملة من لام أو نون أو ميم ، و إن كان احتلال هذه الأصوات الثلاثة ، لقمم الخط المتموج قليل الشيوع . وقد روى لنا أحد المحدثين جملة فى اللغة التشيكوسلوفا كية لا تشتمل على صوت لين واحد . ولـكن لندرة هذا فى اللغات ، سنهمل هنا اعتبار هذه الأصوات السا كنة من بين الأصوات المقطعية ، مكتفين دائماً بعد المقاطع فى الـكلمة أو الجملة حسب ما تشتمل عليه من أصوات لين .

فإذا التقى فى الـكلام صوتا لين ، تـكون منهما عادة صوت واحد أقل وضوحاً فى السمع ، ويخرج بهذا عن صفات أصوات اللين فيصبح صـوتاً سا كناً أو شبيهاً بأصوات اللين . والتقاء صوتى لين ينتج لنا عادة أحد الصوتين الانتقاليين اللذين نسميهما « الواو » و « الياء[1] » .

فنى الـكلمة الإنجليزية (Creation) لا نعد صوتى اللين (e و a) صوتين مقطعيين ، بل يتـكون منهما عادة نوع من « الياء » .

والتقاء صـوتى لين أحدهما مقطعى والآخر غير مقطعى ، ينتج عادة ذلك الصوت المركب الذى يسمى (Diphthong) . وإذا كان المقطعى منهما

---

(١) أنظر صفحة ٤٨ .

أولا سمى الـ (Diphthong) هابطاً (falling) وهو الشائع فى اللغة الإنجليزية . وأما إذا كان غير المقطعى هو الأول ، سمى الـ (Diphthong) صاعداً (Rising) . وتشتمل اللغة العربية على النوعين ، فالهابط فى مثل « بيت » والصاعد فى مثل « يسر » . وقد مالت اللغة العربية فى تطورها إلى التخلص من النوع الأول ، فقد انقلب فى معظم اللهجات العربية الحديثة ، إلى صوت لين طويل ، كما فى نطق المصريين الآن لكلمتى « بيت وحوض » .

واللغة العربية حين النطق بها تتميز فيها مجاميع من المقاطع ، تتكون كل مجموعة من عدة مقاطع ينضم بعضها إلى بعض ، وينسجم بعضها مع بعض فهى وثيقة الاتصال . وبذلك ينقسم الكلام العربى إلى تلك المجاميع من المقاطع . وكل مجموعة اصطلح عادة على تسميتها بالكلمة . فالكلمة ليست فى الحقيقة إلا جزءاً من الكلام ، تتكون عادة من مقطع واحد ، أو عدة مقاطع وثيقة الاتصال بعضها ببعض . ولا تكاد تنفصم فى أثناء النطق بل تظل مميزة واضحة فى السمع . ويساعد بلا شك على تمييز تلك المجاميع معانيها المستقلة فى كل لغة .

غير أن بعض القراءات القرآنية أباحت ما سمى بالإدغام الكبير فى كلمتين مثل « لذهب بسمعهم » ? « يعذب من يشاء » ? « حيث شئتما » . وفى مثل هذه الحالة لا يسهل التمييز بين حدود الكلمتين إلا بمراعاة المعنى، إذ فى بعض الأحيان تكون الكلمتان مجموعة واحدة من المقاطع ، أو تكونان مجموعتين لا تنطبقان على مقاطع الكلمتين حين نقرؤهما بغير الإدغام ، فطوراً نجد المقطع الأخير من الكلمة الأولى أو جزءاً منه ينضم إلى

مقاطع الكلمة الثانية ، وطوراً آخر نجد المقطع الأول من الكلمة الثانية ، أو جزءاً منه ينضم إلى مقاطع الكلمة الأولى . وكذلك الحال فى حالة التقاء همزتين فى كلمتين مثل : « هؤلاء إن كنتم » . فما يعرض لإحدى الهمزتين فى بعض القراءات يجعل التمييز بين الكلمات عسيراً ، إلا إذا لوحظ المعنى .

والكلمة العربية مهما اتصل بها من لواحق (Suffixes) أو سوابق (prefixes) لا تزيد عدد مقاطعها على سبعة . فى كل من المثالين « فسيكفيكهمو » ، أو « أنلزمكموها » مجموعة مكونة من سبعة مقاطع . على أن هذا النوع نادر فى اللغة العربية ، وإنما الكثرة الغالبة من الكلام العربى تتكون من مجاميع من المقاطع ، كل مجموعة لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع . واللغة العربيـة تميل عادة فى مقاطعها إلى المقاطع الساكنة وهى التى تنتهى بصوت ساكن ، ويقل فيها توالى المقاطع المتحركة ، خصوصاً حين تشتمل على أصوات لين قصيرة .

واللغات بصفة عامة تتباين فى ميلها إلى نوع خاص من المقاطع. فمن لغات وسط أفريقيا[1] ما يفر من المقاطع الساكنة ، ويؤثر المتحركة عليها . ولكن اللغة العربية رغم إيثارها المقاطع الساكنة قد اشتملت على النوعين : الساكن والمتحرك .

وقد أشار النحاة من القدماء إلى ميل اللغة العربية إلى المقاطع الساكنة ، حين قرروا استحالة اجتماع أربعة متحركات فى الكلمة الواحدة ، وكراهته فيما هو كالكلمة . ومعنى قولهم هذا كما يعبر عنه المحدثون أن اللسان العربى

---

(١) انظر صفحة ٥٦ من كتاب « لغات أفريقيا » مجموعة لغات البانتو .

ينفر من توالى أربعة مقاطع متحركة فيما هو كالكلمة ؛ ولكنهم أباحوا توالى أربعة مقاطع ساكنة فيما هو كالكلمة إذ تقول « استفهمتم » .

وأنواع النسج فى المقاطع العربية خمسة فقط هى :

open:

١ — صوت ساكن + صوت لين قصير .
٢ — صوت ساكن + صوت لين طويل .

closed:

٣ — صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن
٤ — صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن
٥ — صوت ساكن + صوت لين قصير +صوتان ساكنان

ورغم أن أنواع النسج الممكن تكونها من الأصوات الثلاثة « الصوت الساكن وصوت اللين القصير وصوت اللين الطويل » كثيرة جداً ، فإن كل ما عدا الأنواع السابقة لا يعد نسجاً عربياً لمقاطع اللغة العربية . وتقتصر اللغات البشرية عادة على بعض أنواع النسج الممكن تكونها من الأصوات الثلاثة .

ففى الفعل الماضى الثلاثى مثل « كتب » تتوالى ثلاثة مقاطع من النوع الأول ، أما مضارعه « يكتب » فيتكون من مقطع من النوع الثالث مضافاً إليه مقطعان من النوع الأول .

والفعل الماضى الأجوف مثل « قال » يتكون من مقطعين أولهما من النوع الثانى وثانيهما من النوع الأول .

والأنواع الثلاثة الأولى من المقاطع العربية هى الشائعة وهى التى تكون الكثرة الغالبة من الكلام العربى ؛ أما النوعان الأخيران أى الرابع والخامس

فقليلا الشيوع ، ولا يكونان إلا فى أواخر الكلمات وحين الوقف . فحين نقف على كلمة « نستعين » فى قوله تعالى « إياك نعبد و إياك نستعين » تتكون الكلمة حينئذ من ثلاثة مقاطع : أولها مقطع من النوع الثالث ، وثانيها من النوع الأول وثالثها من النوع الرابع . وكذلك حين نقف على كلمة « المستقر » فى قوله تعالى « إلى ربك يومئذ المستقر » ، تتكون هذه الكلمة مكونة من أربعة مقاطع : أولها وثانيها من النوع الثالث ، وثالثها من النوع الأول ، ورابعها من النوع الخامس.

على أن هناك من المقاطع ما يعادل النوعين الرابع والخامس فى زمن النطق بهما أو ربما أكثر ، وقد تقع هذه المقاطع غير متطرفة أى أول الكلمة أو وسطها وذلك حين يكون بعد حرف المدّ صوتان ساكنان كما فى « ولا الضالين » ، أو يكون بعده همزة كما فى « يشاءون » ، وهنا نرى أصحاب القراءات يطيلون ألف المدّ فى المثالين بحيث تعادل فى زمن النطق بها صوت اللين الطويل مضافاً إليه صوت ساكن ؛ بل منهم من يطليها فوق هذا القدر . وعلى هذا تكون كلمة « ضالينْ » مكونة من مقطعين هما : ضال + لينْ .

ونلحظ أن المقطع الأول مكون من أصوات تعادل :

صوت ساكن + صوت لين طويل + صوتان ساكنان .

وهذا نوع من المقاطع نادر الوجود فى النثر العربى ، ولا وجود له فى الشعر .

أما فى كلمة « يشاءون » فنلحظ أنها فى القراءات يكون المقطع الثانى فيها وهو « شا » مكوناً مما يعادل :

صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن .

وهذا هو ما يعادل المقطع الرابع الذى ألفناه عادة متطرفاً وفى حالة الوقف .

ولـكن مثل هاتين الحالتين مقصور على القراءة القرآنية ، ولذلك نؤثر المرور بهما مراً سريعاً فى حديثنا عن المقاطع العربية .

وتوالى المقاطع من النوع الأول والثالث جائز مستساغ فى الكلام العربى ، وإن كانت اللغة العربية فى تطورها تميل إلى التخلص من توالى النوع الأول . أما توالى النوع الثانى فهو مقيد غير مألوف فى الكلام العربى ، ولا يسمح الـكلام العربى بتوالى أكثر من اثنين من هذا النوع .

وإذا نظرنا إلى الـكلمات العربية ، الأسماء منها والأفعال ، نجد أن أوزان المشتق من الأسماء والأفعال محصورة ، أجمع عليها النحاة ؛ وتلك هى التى سنحاول البحث فى مقاطعها هنا . أما أوزان الاسم الجامد فـكثيرة جداً ، لا تكاد تقع تحت حصر ، ومن الخير ألا نعرض لها هنا .

فالـكلمة المشتقة فى اللغة العربية ، اسماً كانت أو فعلا ، حين تـكون مجردة من اللواحق والسوابق (كالضمائر وال المعرفة) لا تكاد تزيد على أربعة مقاطع ، ويندر أن نجدها تتكون من خمسة مقاطع مثل « يتعلّمُ » « يتسابقُ » ، فنسج الـكلمة الأولى من هذين المثالين هو :

مقطعان من النوع الأول + مقطع من النوع الثالث + مقطعان من النوع الأول .

أما نسج الـكلمة الثانية فهو :

مقطعان من النوع الأول + مقطع من النوع الثانى + مقطعان من النوع الأول .

وكذلك الأسماء المشتقة من هذين الفعلين قد تتـكون من خمسة مقاطع

مثل « متعلمٌ » و « متسابقٌ » ، ولكن لندرة هذا النوع من الكلمات سنفرض هنا أن كلمات اللغة العربية لا تزيد على أربعة مقاطع .

وحين نستعرض نسج الكلمات العربية ذات الثلاثة أو الأربعة المقاطع ، نجد أشكال النسج قليلة ، إذا قيست بما يمكن أن يتكون من تلك المقاطع العربية التي أشرنا إليه آنفاً .

والنوع الرابع والخامس من المقاطع فى اللغة العربية محدود الاستعمال لا نراه إلا متطرفاً ، وفى بعض حالات الوقف ، أما الأنواع الثلاثة الأولى فهى التي يتكون منها نسج الكلمة العربية فى الكلام المتصل . وقد تقع تلك الأنواع الثلاثه فى أول الكلمة أو وسطها أو آخرها . فليس منها ما يختص بموضع ما من الكلمة .

وإذا نظرنا إلى الكلمات العربية التي تكونت فعلا من تلك المقاطع الثلاثة الأولى ، وجدنا أشكال نسجها محدودة . لأن أشكال النسج التي يمكن أن تتكون للكلمات ذات الثلاثة أو الأربعة المقاطع ، من الأنواع الثلاثة الأولى للمقاطع ، تجاوز المائة ، فى حين أن المستعمل فعلا فى اللغة لا يكاد يجاوز ربع هذا العدد . إذ لدينا أنواع ثلاثة من المقاطع هى :

١ — صوت ساكن + صوت لين قصير .

٢ — صوت ساكن + صوت لين طويل .

٣ — صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن

ومن هذه الأنواع الثلاثة يمكن أن نكون أشكالا مختلفة لنسج الكلمة العربية ، مراعين أن بعض الكلمات يشتمل على ثلاثة مقاطع ، والبعض الآخر

يشتمل على أربعة . فبعملية رياضية بسيطة نستطيع أن نعرف الأشكال الممكنة لنسج الكلمة . ولكن هناك فرقاً بين ما هو ممكن عقلا وما هو واقعى نراه فعلا مستعملا فى لغتنا . فقد يكون نسج الكلمة العربية ذات المقاطع الثلاثة مثلاً :

مقطع من النوع الثالث + مقطع من النوع الثانى + مقطع من النوع الأول .

والكلمات التى تتبع هذا النسج كثيرة مثل (يرتاعُ . يختارُ . يمتازُ) الخ كما قد يكون النسج مثل :

مقطع من النوع الأول + مقطع من النوع الثانى + مقطع من النوع الثالث .

وكلمات هذا النسج أمثال (منادٍ . معادٍ . محيطٌ) الخ

كذلك قد يكون النسج مثل :

مقطع من النوع الثانى + مقطعان من النوع الأول .

وكلمات هذا النسج أمثال (قاتلَ . بايعَ) الخ .

أما الكلمات ذات المقاطع الأربعة ، فقد يكون نسجها مثلا :

مقطع من النوع الأول + مقطع من النوع الثالث + مقطعان من النوع الأول .

وكلمات هذا النسج أمثال (يفهمُ . يقدمُ . يدحرجُ) الخ .

تلك هى أمثلة من أنواع النسج للكلمات العربية التى نراها مستعملة فعلا . ومعرفتنا لأنواع النسج المستعملة فى اللغة ، يسهل علينا الحكم على نسج

الكلمة العربية ، ونسج ما ليس بعربى من الكلمات . ويضيق المقام هنا عن ذكر كل أنواع النسج المستعملة فعلا فى اللغة العربية ؛ ولكن استخراجها من كلمات اللغة أمر ليس بالعسير ؛ والمرء حين يعرفها يستطيع الحكم بمجرد النظر على أن مثل النسج التالى غير عربى :

مقطع من النوع الثالث + مقطعان من النوع الثانى .

وكذلك النسج الآتى غير عربى :

مقطع من النوع الثانى + مقطعان من النوع الثالث .

فالكلمات التى نراها على مثل هذين النسجين نحكم على أنها أجنبية عن لغتنا .

هذه هى أهمية معرفة نسج الكلمة العربية ، لأن اللغات بصفة عامة تختلف اختلافاً بيناً فى نسج كلماتها .

وليس من نسج المقاطع العربية هذا النوع :

صوتان ساكنان + صوت لين قصير + صوت ساكن .

فاذا اشتملت كلمة على مثل هذا المقطع ، أمكن الحكم بسهولة على أنها غير عربية . ونلحظ هذا المقطع فى مثل الكلمة الإنجليزية (congratulation) ، فى حين أن نسج الكلمة الانجليزية (Dictation) يوافق النسج العربى فى مثل « مرتاعٌ . مستاءٌ » ، لأن مثل هذه الكلمات يتكون من المقاطع الآتية : مقطع من النوع الثالث + مقطع من النوع الثانى + مقطع من النوع الثالث .

(٣)

النـــبر (Stress)

النبر هو نشاط فى جميع أعضاء النطق فى وقت واحد . فعند النطق بمقطع منبور ، نلحظ أن جميع أعضاء النطق تنشط غاية النشاط ؛ إذ تنشط عضلات الرئتين نشاطاً كبيراً ، كما تقوى حركات الوترين الصوتيين ويقتربان أحدهما من الآخر ليسمحا بتسرب أقل مقدار من الهواء ، فتعظم لذلك سعة الذبذبات ، ويترتب عليه أن يصبح الصوت عالياً واضحاً فى السمع . هذا فى حالة الأصوات المجهورة ، أما مع الأصوات المهموسة فيبتعد الوتران الصوتيان أحدهما عن الآخر أكثر من ابتعادهما مع الصوت المهموس غير المنبور ؛ وبذلك يتسرب مقدار أكبر من الهواء .

وكذلك يلاحظ مع الصوت المنبور نشاط فى أعضاء النطق الأخرى ، كأقصى الحنك واللسان والشفتين . ولكنا حين النطق بالصوت غير المنبور ، نلحظ فتوراً فى أعضاء النطق . فالمسافة بين الوترين الصوتيين مع المجهورات تتسع ، وبذلك يقل ضغط الهواء فى أثناء تسربه ، وتقل سعة الذبذبات . كما نلحظ أن تلك المسافة مع المهموسات لا تكون من الاتساع بحيث تسمح بمرور قدر كبير من الهواء . وكذلك تفتر باقى أعضاء النطق ، فلا يسد أقصى الحنك الفراغ الأنفى سداً محكماً ، كما يحدث فى الصوت المنبور . وكذلك نلحظ أن الوضع اللسانى يكون أقل دقة وإحكاما ، ويضعف نشاط الحركة فى الشفتين . ويترتب على كل هذا الخمول فى عضلات النطق ، أن يقل وضوح الصوت فى

السمع ، وينخفض الصوت فيصعب تمييزه من مسافة ، عندها يمكن تمييز الصوت المنبور .

والمرء حين ينطق بلغته ، يميل عادة إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ، ليجعله بارزاً أوضح فى السمع من غيره من مقاطع الكلمة . وهذا الضغط هو الذى نسميه بالنبر .

واللغات تختلف عادة فى موضع النبر من الكلمة . ومنها ما يخضع لقانون خاص بمواضع النبر فى كلماته كالعربية والفرنسية ، ومنها مالا يكاد يخضع لقاعدة ما ، فى هذا ، كالانجليزية . فالفرنسى يضغط عادة على المقطع الأخير من كل كلمة .

ونطق اللغة لا يكون صحيحاً إلا إذا روعى فيه موضع النبر .

فالفرنسى حين ينطق بالانجليزية يضغط على المقاطع الأخيرة من الكلمات متأثراً بعاداته اللغوية ، فتنفر الأذن الإنجليزية من نطقه الذى تشوبه لهجة أجنبية قد تؤدى إلى اضطراب فى الفهم . لأن بعض الكلمات الانجليزية يختلف استعمالها باختلاف موضع النبر فيها . فأمثال الكلمات الانجليزية augment, Torment لا يفرق بينها حين تستعمل فعلا أو اسماً ، إلا اختلاف موضع النبر .

وليس لدينا من دليل يهدينا إلى موضع النبر فى اللغة العربية ، كما كان ينطق بها فى العصور الإسلامية الأولى ، إذ لم يتعرض له أحد من المؤلفين القدماء .

أما كما ينطق بها القراء الآن فى مصر ، فلها قانون تخضع له ، ولا تكاد تشذ عنه . ويمكن أن يلخص هذا القانون فى أنه لمعرفة موضع النبر من الكلمة العربية ، نبدأ أولا بالنظر إلى المقطع الأخير ، فاذا وجدناه من النوع

الرابع أو الخامس ، فهو إذن المقطع الهام الذى يحمل النبر ، ولا يكون هذا كما أشرت آنفاً إلا فى حالة الوقف . فالنبر فى الكلمة العربية لا يكون على المقطع الأخير إلا فى حالة الوقف وحين يكون المقطع الأخير من النوع الرابع أو الخامس ، أى عبارة عن :

صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن

أو

صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان

ففى الوقف على « نستعين » فى قوله تعالى « إياك نعبد و إياك نستعين » أو على « المستقر » فى قوله تعالى « إلى ربك يومئذ المستقر » نجد النبر على المقطعين « عين » ، « قرّ » .

أما إذا وجدنا الكلمة لا تنتهى بهذين النوعين من المقاطع ، كان النبر على المقطع الذى قبل الأخير ، بشرط ألا يكون هذا المقطع من النوع الأول ومسبوقاً بمثله من النوع الأول أيضاً .

وموضع النبر فى الكثرة الغالبة من الكلمات العربية هو المقطع الذى قبل الأخير مثل « استفهمْ » أو « ينادى » أو « قاتلَ » أو « يكتبُ » . ففى المثالين الأخيرين رغم أن المقطع الذى قبل الأخير من النوع الأول لم يسبق بمقطع نظير له من النوع الأول أيضاً .

أما فى الفعل الماضى الثلاثى مثل « كتبَ . فرحَ . صعُبَ » فالنبر يكون على المقطع الثالث حين تعد المقاطع من آخر الكلمة ، أى على (كَ . فَ . صَ) . وكذلك فى الكلمات أمثال « اجتمعَ . انكسرَ » ، أو أمثال

المصادر « لعبٌ . فرحٌ » ، أو الأسماء « عنبٌ . بلحٌ » ، نجد النبر على المقطع الثالث حين نعد من آخر الكلمة .

وهناك موضع رابع للنبر العربى ، وإن كان نادراً ، وهو حين تكون المقاطع الثلاثة التى قبل الأخير فى الكلمة من النوع الأول ، مثل « بلحةٌ . عربةٌ . حركةٌ » . ففى هذه الحالة يكون النبر على المقطع الرابع حين نعدُّ مقاطع الكلمة من الآخر ، أى على (بَ . عَ . حَ) .

فللنبر العربى أربعة مواضع أشهرها وأكثرها شيوعا المقطع الذى قبل الأخير . ويمكن أن نلخص تلك المواضع كما يلى :

لمعرفة موضع النبر فى الكلمة العربية ، ينظر أولا إلى المقطع الأخير ، فإذا كان من النوعين الرابع والخامس ، كان هو موضع النبر ، وإلا نظر إلى المقطع الذى قبل الأخير ، فإن كان من النوع الثانى أو الثالث ، حكمنا بأنه موضع النبر ، أما إذا كان من النوع الأول ، نظر إلى ما قبله فإن كان مثله أى من النوع الأول أيضاً ، كان النبر على هذا المقطع الثالث حين نعدُّ من آخر الكلمة . ولا يكون النبر على المقطع الرابع حين نعدّ من الآخر إلا فى حالة واحدة ، وهى أن تكون المقاطع الثلاثة التى قبل الأخير من النوع الأول .

هذه هى مواضع النبر العربى ، كما يلتزمها مجيدو القراءات القرآنية فى القاهرة .

أما مواضع النبر فى اللهجات الحديثة الأخرى فقد تخضع لقوانين أخرى ، لا محل لذكرها هنا . فنحن مثلا نلحظ بين أهالى الصعيد من يختلفون عن

القاهريين فى موضع النبر أحياناً . فهم حتى فى قراءة القرآن الكريم يميلون إلى الضغط على المقطع الثالث حين نعد المقاطع من الآخر ، متى كان المقطع الذى قبل الأخير من النوع الأول . ويظهر الفرق بينهم وبين القاهريين فى نبر أمثال « ربُّنا . عمَلُهُمْ » ، إذ نلحظ أن القاهريين ومعظم سكان الوجه البحرى يضغطون على ما قبل الأخير فى الكلمة الأولى أى على (بُ) ويضغطون على « عَ » فى الكلمة الثانية ، أما أهل الصعيد فيضغطون على المقطع (رَبْ) فى الكلمة الأولى ، وعلى المقطع « مَ » في الكلمة الثانية .

ولزيادة الإيضاح نقول إن الصعيدى متى كانت الكلمة غير مختتمة بمقطع من النوعين الرابع والخامس وكان مقطعها الذى قبل الأخير من النوع الأول انتقل بالضغط فوراً إلى الثالث حين نعدّ من الوراء دون نظر أو رعاية لأى شىء آخر .

أما القاهرى وأمثاله فلا ينتقلون هنا بالضغط إلا حين يكون المقطعان (ما قبل الأخير وما سبقته) من النوع الأول . ولا يكاد الصعيدى يبتعد بالضغط عن المقطع الثالث حين نعد من نهاية الكلمة ، ولكن القاهرى فى مثل (بلحةٌ) يرجع بالضغط إلى الوراء حتى يصل إلى المقطع الرابع وهو (بَ) .

ويجب ألا نتصور أن مثل هذه العملية تتم مع شعور بها فى أثناء الكلام ؛ فما هى إلا إحدى العاذات اللغوية التى درجنا عليها وأصبحت لنا بمثابة السليقة .

ولحسن الحظ لا تختلف معانى الكلمات العربية ولا استعمالها باختلاف موضع النبر منها .

هذا هو ما يمكن أن يسمى بنبر الكلمات . وهناك نوع آخر من النبر يسمى نبر الجمل ، وهو أن يعمد المتكلم إلى كلمة فى جملته فيزيد من نبرها ، ويميزها على غيرها من كلمات الجملة ، رغبة منه فى تأكيدها أو الإشارة إلى غرض خاص . وقد يختلف الغرض من الجملة تبعاً لاختلاف الكلمة المختصة بزيادة نبرها . ونبر الجملة شائع فى كثير من اللغات . ففى جملة عربية مثل (هل سافر أخوك أمس ؟) يختلف الغرض منها باختلاف الكلمة التى زيد نبرها . فحين نزيد نبر كلمة « سافر » فى هذه الجملة ، قد يكون معناها أن المتكلم يشك فى حدوث السفر من أخى السامع ، ويظن أن حدثا آخر غير السفر هو الذى تمّ . فإذا ضغط المتكلم على كلمة (أخوك) ، فهم من الجملة أن المتكلم لا يشك فى حدوث السفر وإنما الذى يشك فيه هو فاعل السفر ، فربما كان أباه أو عمه أو صديقه لا أخاه . وأخيراً إذا زيد نبر كلمة « أمس » فهم من الجملة أن الشك فى تاريخ السفر .

وزيادة نبر الكلمة فى الجملة ، لا يعدو أن يكون زيادة فى المقطع الهام فى هذه الكلمة . ففى كلمة مثل (أخوك) ، نعلم من القواعد السابقة أن المقطع المنبور هو (خو) ؛ فإذا زيد نبر هذه الكلمة فى جملتها فليس المقصود بهذا سوى زيادة نبر هذا المقطع (خو) ، ليصبح أوضح فى السمع مما كان .

والنبر بنوعيه ليس إلا شدة فى الصوت أو ارتفاعا فيه . وتلك الشدة أو الارتفاع يتوقف على نسبة ضغط الهواء المندفع من الرئتين ، ولا علاقة له بدرجة الصوت أو نغمته الموسيقية [١] .

---

(١) أنظر صفحة ٧ .

— ٤ —

موسيقى الـكلام (Intonation)

برهنت التجارب الحديثة على أن الإنسان حين ينطق بلغته لا يتبع درجة صوتية[١] واحدة فى النطق بجميع الأصوات ، فالأصوات التي يتـكون منها المقطع الواحد قد تختلف في درجة الصوت ، وكـذلك الكلمات قد تختلف فيها . ومن اللغات ما يجعل لاختلاف درجة الصـوت أهمية كبرى ، إذ تختلف فيها معانى الـكلمات تبعاً لاختلاف درجة الصوت حين النطق بها . ومن أشهر هذه اللغات اللغة الصينية ، إذ قد تؤدى فيها الـكلمة الواحدة عدة معان ، ويتوقف كل معنى من هذه المعانى على درجة الصوت حين النطق بالـكلمة . ويمـكن أن نسمى نظام توالى درجات الصوت بالنغمة الموسيقية . ففى اللغة الصينية كلمة (فان) ، تؤدى ستة معان لا علاقة بينها هى : (نوم . يحرق . شجاع . واجب . يقسم . مسحوق) ، وليس هناك من فرق سوى النغمة الموسيقية فى كل حالة .

والتسـلسل الذى نلحظه فى درجة الصوت يخضع لنظام خاص يختلف من لغة إلى أخرى . ولا بد من معرفة هذا النظام فى اللغة التى يراد تعلمها ، وإلا فقد الـكلام صبغته الخاصة ، و بعد عن النطق الطبيعى الخاص بكل لغة .

والبحث عن نظام درجات الصوت وتسلسله فى الـكلام العر بى ، يحتاج إلى عون خاص من الموسيقيين عندنا .

---

(١) أنظر صفحة ٧

ولسوء الحظ حتى الآن لم يهتد موسيقيونا إلى السلم الموسيقى فى غنائنا ؛ أو بعبارة أخرى لم يتفقوا عليه . لهذا نؤثر ترك الحديث عن موسيقى الكلام العربى إلى مجال آخر ، عسى أن تكفل لنا البحوث المستقبلة القيام بهذا .

— ٥ —

انتقال النبر

قد يطرأ على الكلمة من الأحكام اللغوية ما يستوجب انتقال النبر من موضعه إلى مقطع قبله ، أو آخر بعده من الكلمة .

فاشتقاق كلمة من أخرى قد يؤدى إلى تغير موضع النبر . فالفعل الماضى (كتبَ) يحمل النبر على المقطع (كَ) فإذا جئنا بالمضارع (يكتبُ) ، لاحظنا أن النبر قد انتقل إلى المقطع الذى يليه وهو (تُ) . وكذلك إذا اشتققنا من المصدر (انكسار) فعلا ماضياً مثل (انكسر) نلحظ أن النبر ينتقل إلى المقطع الذى قبله ؛ لأنه فى الكلمة الأولى على المقطع (سا) ؛ وفى الثانية على المقطع (كَ) .

وقد يطرأ على الكلمة من العوامل اللغوية ما يستوجب أيضاً انتقال النبر من موضعه . ويلاحظ هذا بصفة خاصة مع أدوات الجزم ، فالنبر فى الفعل (يكتبُ) على المقطع (تُ) فإذا جزم الفعل انتقل النبر إلى المقطع الذى قبله وهو (يكْ) .

كذلك نلحظ انتقال النبر حين يسند الفعل إلى الضمائر ؛ أو حين يتصل بالكلمة ضمائر النصب أو الجر ؛ على شريطة أن يغير كل هذا من نسج الكلمة الأصلية . فالنبر فى الفعل الماضى (كتب) على المقطع (كَ) ؛ فإذا أسند إلى معظم ضمائر الرفع المتصلة ؛ انتقل إلى المقطع الذى يليه . فى « كتبتُ » أو « كتبنا » نجد النبر فوق (تبْ) ؛ ولكنه يبقى في مكانه فى حالة الإسناد إلى واو الجماعة مثل (كتبوا) . وكذلك المصدر (استفهامٌ) إذا اتصل بالضمير « نا » فأصبح « استفهامنا » انتقل النبر من المقطع « ها » إلى المقطع « مُ » .

ونلحظ فى كل هذا أن انتقال النبر لا يتجاوز مقطعاً واحداً . على أنه فى بعض الأحيان قد ينتقل النبر مقطعين ؛ ففى إسناد الفعل الماضى « سمع » إلى جماعة المخاطبات يصبح « سمعتُنَّ » ؛ فينتقل النبر من (سَ) إلى (تنْ) مجاوزا فى انتقالة مقطعين . ولا يكاد يجاوز النبر فى تنقله أكثر من مقطعين . والقاعدة التى نعرف بها موضع النبر والتى سبق شرحها هى هى فى كل الحالات مهما أصاب الكلمة من تغير فى نسجها .

الفصل السادس

— ١ —

المماثلة (Assimilation)

تتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض فى المتصل من الكلام . فحين ينطق المرء بلغته نطقاً طبيعياً لا تكلف فيه ، نلحظ أن أصوات الكلمة الواحدة قد يؤثر بعضها فى البعض الآخر ، كما نلحظ أن اتصال الكلمات فى النطق المتواصل قد يخضع أيضاً لهذا التأثر . على أن نسبة التأثر تختلف من صوت إلى آخر . فمن الأصوات ما هو سريع التأثر يندمج فى غيره أكثر مما قد يطرأ على سواه من الأصوات . ومجاورة الأصوات بعضها لبعض فى الكلام المتصل ، هى السر فيما قد يصيب بعض الأصوات من تأثر .

والأصوات فى تأثرها تهدف إلى نوع من المماثلة أو المشابهة بينها ، ليزداد مع مجاورتها قربها فى الصفات أو المخارج . ويمكن أن يسمى هذا التأثر بالانسجام الصوتى بين أصوات اللغة . وهذه ظاهرة شائعة فى كل اللغات بصفة عامة ؛ غير أن اللغات تختلف فى نسبة التأثر وفى نوعه .

واللغة العربية فى تطورها إلى لهجات الكلام الحديثة ، مالت ميلا كبيراً إلى هـذا التأثر ، إذ نلحظ فى اللهجات الحديثة ظواهر مختلفة لتأثر أصوات الكلام بعضها ببعض فى أثناء النطق .

وقد تكون لهذا فى هذه اللهجات قوانين خاصة بتأثر الأصوات وميلها إلى الانسجام مع ما يجاورها ، مما أدى إلى تطور فى النطق ببعض أصوات اللغة الفصيحة .

وقد فطن القراء منذ القدم لهذا ، وخشوا أن يصيب النطق القرآنى شىء من التغيير الصوتى ، فعنوا بوصف كل صوت عربى وصفاً دقيقاً ، واستنكروا ما شاع فى لهجات الكلام من انحراف عن النطق الصحيح للصوت العربى .

فلحرصهم على الأصوات الشديدة المجهورة ، التى تعرضت للهمس فى بعض اللهجات الكلامية ، سموها أصوات القلقة ، وقلقلوها فى نطقهم ليأمنوا بهذا من همسها . فالقلقة ليست فى الحقيقة إلا مبالغة فى الجهر بالصوت ، لئلا تشوبه شائبة من همس كما شاع فى لهجات الكلام . ولكن رغم هذا الحرص الشديد قد تطورت بعض أصوات القلقة ، فأصبحت لا تسمع فى قراءتنا الآن إلا مهموسة ، ومثل هذه « القاف » و « الطاء »(١) .

والقراء فى كتبهم قد حذروا المتعلمين من الزلل فى النطق بالأصوات العربية ، وأبانوا لهم الأخطاء الشائعة فى لهجات الكلام . ومن ذلك ما نقرؤه فى كتاب النشر فى القراءات العشر لابن الجزرى صفحة ٢٢٠ جزء أول ، إذ يحذر المتعلمين من تفخيم « الباء » إذا كان بعدها صوت مفخم نحو « بطل » . كما أشار إلى وجوب العناية بالتاء ، لأن بعض الناس ينطقون بها رخوة ، فتصير نوعاً من « السين » ، وإلى العناية بنطق الجيم لأن أهل الشام ينطقون بها شديدة التعطيش ، وفى مصر و بعض بوادى اليمن ينطق بها كمجهور الكاف

---

(١) أنظر صفحة ٥٨ ، ٧٧

(وهى الجيم القاهرية) . وكذلك تميل الجيم المشكلة بالسكون إلى قلبها «شينا» إذا وليها صوت مهموس كما فى « اجتمعوا » .

كما روى أن بعض النبط ينطقون بالذال « دالا » ، وبعض العجم ينطقون بها « زايا » . هذا إلى أن بعض الأعراب ينطقون بالقاف « كافا » صمـاء[١] .

هذا بعض ما أورده ابن الجزرى ، محذراً منه المتعلمين ليجتنبوا ما شـاع فى لهجات الـكلام من الانحراف فى نطق بعض الأصوات العربية . ويستدل من هذه الإشارات أن بعض الأصوات العربية كان قد أصابها شىء من التطور فى القرن الثامن الهجرى عصر ابن الجزرى ، بله العصور الحديثة التى ازداد فيها تطور الأصوات وتأثرها بعضها ببعض .

والمحدثون من علماء الأصوات اللغوية قرروا أنه قد يتجاور صوتان لغويان ويتأثر الأول منهما بالثانى ، واصطلحوا على تسمية هذا النوع من التأثر بالرجعى regressive .

وأحيانا يتأثر الصوت الثانى بالأول وسموا هذا بالتأثر التقدمى progressive

فتأثر الأصوات المتجاورة بعضها ببعض نوعان :

رجعى : وفيه يتأثر الصوت الأول بالثانى . وهـذا النوع كثير الشيوع فى اللغة الفرنسية وفى العربية أيضاً .

تقدمى : وفيه يتأثر الصوت الثانى بالأول وهو الشائع فى اللغة الانجليزية كما أنه قد يوجد أيضاً فى اللغة العربية .

---

(١) لعله يريد بهذا كالجيم القاهرية .

والابدال القياسى الذى يشير إليه النحاة دائماً فى صيغة « افتعل » حين تكون فاؤها « دالا » ، أو « ذالا » ، أو « زايا » ، أو أحد أصوات الإطباق يتضمن نوعى التأثر الرجعى والتقدمى .

فصياغة « افتعل » من (دعا . ذكر . زاد) هى فى الأصل ، (اذتعى اذتكر . ازتاد) ، فاجتمع فى كل من هذه المُثل صوتان متجاوران : الأول منهما مجهور والثانى مهموس ، فتأثر الثانى بالأول وانقلب إلى صوت مجهور أيضاً ليجتمع صوتان مجهوران . ولأن التاء المهموسة حين يجهر بها تصير « دالا » ، أصبحت هذه المُثل :

ادّعى . اذدكر . ازداد .

وهذا تأثر تقدمى لأن الثانى تأثر بالأول . على أنه قد أصاب الكلمتين الأخيرتين تطور آخر ، إذ صارتا فى بعض الأحيان (اذّكر . ازّاد) ، ففنى الصوت الثانى فى الأول ونطق بهما صوتاً واحداً كالأول ، وهذا التأثر تقدمى أيضاً ؛ غير أن الشائع الكثير الاستعمال فى « اذّكر » هو « ادّكر » ، أى أن الصوت الأول قد فنى فى الصوت الثانى ، وبذلك صار التأثر رجعياً .

وكذلك حين تكون فاء « افتعل » أحد أصوات الإطباق نجد التأثر فى معظم الأحيان تقدمياً ، وقد يكون رجعياً أيضاً .

فمثلا حين نصوغ « افتعل » من « ظلم » نجد الصيغة فى الأصل « اظتلم » وقد اجتمع فى هذا المثال صوتان متجاوران ، الأول منهما مجهور مطبق ، وقد أثر في الثانى فجعله مجهوراً مطبقاً مثله ، فوجب إذن أن تصبح التاء « ضاداً »

كالتى ننطق بها الآن . وهذه الضاد الحديثة هى التى سماها القدماء «طاء»(١) . فلا غرابة أن روى لنا القدماء هذه الصيغة بعد تأثرها « اظطلم » ، ولعلهم كانوا ينطقون بها « اظضلم » ، وهذا مثل آخر للتأثر التقدمى . ثم زاد هذا التأثر حتى فنى الصوت الثانى فى الأول فصارت الكلمة « اظّلم » . على أنه قد رويت الكلمة « اطّلم » أيضاً ، أى أن الصوت الأول فنى فى الثانى وهو تأثر رجعى . ولعل النطق الأصلى لهذه الكلمة فى وضعها الأخير كان فى الحقيقة « اضّلم » . ومثل هذا يمكن أن يقال حين نصوغ « افتعل » من « ضرب » ، إذ تصير الكلمة أولا « اضترب » فيؤثر الصوت الأول فى الثانى ليصبح مثله مجهورا مطبقاً ، وبهذا يجتمع فى الكلمة نوعان من الضاد : أولاهما هى الضاد القديمة والثانية هى الضاد الحديثه التى كان يكتبها القدماء « طاء » أى « اضطرب » . وقد يزداد تأثر الثانى بالأول فتصير الكلمة « اضّرب » ، وهو تأثر تقدمى ، ولا يجوز غيره فى هذه الصيغة . أما حين نصوغ « افتعل » من « صبر » ، فنجد الصيغة أولا « اصتبر » ، وقد اجتمع فى هذه الكلمة صوتان مهموسان ، غير أن أحدهما مطبق والآخر مستفل فقلبت التاء إلى نظيرها المطبق وهو الطاء الحديثة كما ننطق بها الآن ، ومن أجل هذا صارت الكلمة « اصطبر » . ثم زاد تأثر الثانى بالأول فأصبحت الكلمة « اصّبر » ولا يجوز فيها غير هذا .

(١) أنظر صفحة ٥٨

— ٢ —

درجات التأثر

الأصوات المتجاورة تختلف فى نسبة تأثرها بعضها ببعض ، فقد لا يعدو التأثر أن يكون مجرد انقلاب الصوت من الجهر إلى الهمس أو العكس . وأقصى ما يصل إليه الصوت فى تأثره بما يجاوره أن يفنى فى الصوت المجاور ، فلا يترك له أثراً . وفناء الصوت فى صوت آخر هو ما اصطلح القدماء على تسميته بالإدغام .

وتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض ليس مقصوراً على الأصوات الساكنة ؛ بل قد يكون أيضاً فى أصوات اللين وهو ما يسمى بانسجام أصوات اللين Vowel harmony ، غير أنا هنا سنكتفى بشرح التأثر ونسبته فى الأصوات الساكنة ، لوضوح التأثر فيها وضوحاً لا يدع مجالا للشك .

ويمكن أن نقسم درجات التأثر ونسبته إلى الموضوعات الآتية :

١ — الجهر والهمس :

إذا التقى صوت مهموس بصوت مجهور ، فقد يقلب أحدهما إلى نظير الآخر ، بحيث يتكون منهما صوتان مهموسان أو مجهوران . فحين نصوغ « افتعل » من فعل فاؤه صوت مجهور ، نلحظ أن « تاء » افتعل المهموسة تقلب أحياناً إلى نظيرها المجهور وهو الدال ؛ ليجتمع فى الصيغة صوتان مجهوران . هذا هو السر فيما يحدث فى الأفعال التى فاؤها (دال . ذال . زاى) حين نصوغ

منها « افتعل » لأن كلا من (الدال . الذال . الزاى) صوت مجهور . وليس الأمر مقصوراً على الأفعال التى فاؤها (دال . ذال . زاى) ؛ بل إن القاعدة يمكن أن تطرد فى كل فعل فاؤه صوت مجهور ؛ فلو أمكن أن نصوغ افتعل من فعل مثل « بعث » الذى يبدأ بصوت مجهور ، لكان من الجائز المقبول أن نرى نفس هذه الظاهرة . ولهذا ذكر النحاة فى كتبهم أنه قد سمع فى « اجتمع » و « اجتزّ » ؛ « اجدمع » و « اجدزّ » . لأن الجيم صوت مجهور يناسبه مجهور مثله ، فقلبت التاء دالا من أجل هذا فى هذه الرواية رغم قلة شيوعها . وقد اشتملت اللغة العربية على بعض كلمات صيغتها افتعل وفاء الفعل صوت مجهور ، ومع هذا لم يتم فيها هذا التغير الصوتى مثل (اجتمع . اغتصب . امتنع .) . وهذا النوع من الأفعال قد أصابه فى بعض لهجات الكلام نفس التطور الذى نحن بصدده .

والشرط الأساسى لتحقق تأثر الصوت بما يجاوره أن يكون التقاؤهما مباشرا بحيث لا يفصل بينهما أى فاصل ولو كان هذا الفاصل حركة قصيرة ، ولا يتم هذا إلا حين يكون الصوت الأول مشكلا بما يسمى السكون . فحين نصوغ افتعل من الفعل « ذكر » نجد أن التاء قد جاورت الذال مجاورة مباشرة. ولكن مجاورتهما فى « تذكر » غير مباشرة . ولا يتجاور فى اللغة العربية صوت مجهور مع نظيره المهموس ، فالدال لا تكاد تجاور التاء ، والزاى لا تجاور السين ، والذال لاتجاور الثاء وهكذا . فإذا اقتضت صيغة من الصيغ أن يتجاور صوت مجهور مع نظيره المهموس مجاورة مباشرة وجب أن يقلب أحدهما بحيث يصبح الصوتان إما مهموسين أو مجهورين . أما إذا التقى مجهور بغير نظيره

المهموس فالغالب فى اللغة العربية ألا يتم التأثر إلا حين يختلفان اختلافا كبيرا فى الصفة . فحين نصوغ افتعل من الفعل « زاد » نرى أن الزاى قد جاورت التاء مجاورة مباشرة ، ولبعد ما بينهما فى الصفة يتم التأثر بقلب التاء إلى نظيرها المجهور وهكذا تصبح الكلمة « ازداد » أى يجتمع فيها صوتان مجهوران ، وذلك لأن الزاى أقصى مراحل الرخاوة فى حين أن التاء من الأصوات الشديدة ، ؛ فالبون بينهما كبير ، ولذلك تحقق التأثر . أما فى مثل « اغتصب » فلم يتم التأثر لأن رخاوة الغين قليلة إذا قيست برخاوة الزاى . وربما كان هذا هو السر فى اقتصار التأثر المألوف فى صيغة « افتعل » على المبدوء بالزاى والدال ، لأن هذين الصوتين أكثر الأصوات المجهورة رخاوة .

والغرض من مثل هذا التأثر هو التقريب بين الصوتين المتجاورين ما أمكن ، تيسيرا لعملية النطق واقتصادا فى الجهد العضلى . فحين نصوغ افتعل من الفعل « ظلم » نجد أن الظاء قد جاورت التاء مجاورة مباشرة مع اختلافهما فى أمور ثلاث :

١ — الإطباق لأن الظاء مطبقة والتاء غير مطبقة

٢ — الظاء كثيرة الرخاوة والتاء صوت شديد

٣ — الظاء مجهورة والتاء مهموسة

ولتقريب مسافة الخلف بينهما أمكن أن يصبح الفعل « اظطلم » فلما زاد التقريب بينهما فوق هذا أصبح الفعل « اظّلم » ، وهكذا نرى أن التقريب بين الصوتين المتجاورين تختلف نسبته ، فأحيانا نراه تقريبا بينهما فى الجهر والهمس فقط وأحيانا نجده فى الشدة والرخاوة أيضا .

٢ — انتقال مجرى الهواء من الفم إلى الأنف وبالعكس :

الأصوات صنفان : منها ما يتخذ الهواء مجراه حين النطق بها خلال الفم وهى الكثرة الغالبة فى اللغة العربية ، ومنها ما يتخذ الهواء معها مجراه من الأنف كالنون والميم . وقد لاحظ المحدثون أن الصوت من النوع الأول قد ينتقل إلى نظيره من النوع الثانى ؛ تحت تأثير ظروف لغوية خاصة . فللنون نظائر بين أصوات الفم مثل الدال والتاء ، ولا فرق بين النون والدال إلا فى أن الهواء يتخذ مجراه مع الأولى خلال الأنف ، ومع الثانية خلال الفم ، أما موضع اللسان بالنسبة للحنك الأعلى مع كل منهما ، فيكاد يتحد تمام الاتحاد . وكذلك لافرق بين الميم والباء إلا فى أن الهواء مع الأولى يتسرب من الأنف ومع الثانية من الفم ، وشكل الشفتين مع كل منهما واحد ، هذا إذا صرفنا النظر عن صفة الشدة فى كل من الدال والباء ، وراعينا المخرج وحده .

وقد روى لنا هذا التأثر مطرداً فى بعض أحكام القراءات ، مثل اجتماع الباء مع الميم فى مثل « اركب معنا » ، فقد قلبت الباء ميما ، أى أن صوت الفم « الباء » انتقل إلى نظيره من أصوات الأنف « الميم » . كما اجتمعت النون واللام فى « فإن لم تفعلوا » ، وقلب صوت الأنف « النون » إلى أحد نظرائه من أصوات الفم « اللام » ، لأن كلا من النون واللام من الأصوات الشبيهة بأصوات اللين كما تقدم شرح هذا (١) .

---

(١) أنظر صفحة ٣١ .

٣ ــ انتقال مخرج الصوت :

من أنواع التأثر التى قد تعرض لكثير من الأصوات أن ينتقل الصوت من مخرجه الأصلى إلى مخرج آخر ، فيستبدل به أقرب الأصوات إليه فى هذا المخرج الجديد ، فاذا انتقلت التاء من مخرجها متجهة نحو أقصى الحنك ، استبدل بها الكاف التى تشركها فى الهمس والشدة ، وقد روى النحاة أن « عصيت » أصبحت « عصيكا » فى بعض اللهجات العربية القديمة .

كما إذا انتقل مخرج الكاف متجهاً نحو أصول الثنايا ؛ استبدل بها التاء . ونلحظ هذا بصفه خاصة فى بعض اللهجات العربية الحديثة إذ يقول بعض المصريين : « استنجريه » بدلا من « اسكندرية » ، فانتقال المخرج يبرر لنا قلب الكاف تاء أو العكس . ومما روى فى أحكام القراءات موضحاً هذا ، ما أجمع القراء عليه من أن النون المشكلة بالسكون إذا وليها « باء » ، تقلب ميما مثل : « أنبئهم » ، « من بعد » . فوجود الباء فى هذا النوع من الأمثلة استلزم انتقال النون من مخرجها إلى مخرج الباء ، وترتب على هذا الانتقال أن استبدل بالنون صوت نظير لها فى المخرج الجديد ؛ وأقرب أصوات هذا المخرج الجديد إلى النون هو « الميم » لأن كلا منهما من الأصوات الشبيهة بأصوات اللين ، فضلا عن أن النون والميم صوتان أنفيان .

٤ ــ تغير صفة الصوت من الشدة إلى الرخاوة أو العكس :

ويصحب هذا التأثر عادة إدغام ، كما هو الحال فى بعض القراءات ، كإدغام الدال فى الذال أو الثاء فى التاء وسيأتى بيانه .

٥ ـ الأدغام :

قد يترتب على تجاور صوتين متجانسين أو متقاربين أن أحدهما يفنى فى الآخر ، وهو ما اصطلح على تسميته فى كتب القراءات بالإدغام . والإدغام يتم فى بعض الأحيان بحدوث أكثر من نوع من أنواع التأثر السابقة ، والقراء عادة يقسمون الإدغام إلى إدغام ناقص ، فيه لا يتم فناء أحد الصوتين بل يترك الصوت بعد فنائه أثراً يشعر به ، كما هو الحال فى الإدغام مع الغنة . والقراء يكادون يجمعون على أن هذا لا يكون إلا حين تلتقى النون المشكلة بالسكون « بالياء » أو « الواو » مثل (من يقول . من وال) وقد تقدم شرح الغنـة فى مثل هذا[1] . فإذا لم نلحظ أثراً للصوت بعد فنائه سموه إدغاماً كاملا أو فناء كاملا .

والإدغام عند القراء نوعان : إدغام صغير وهو الشائع المروى عن جمهورهم ، وفيه يتحقق مجاورة الصوتين المتجانسين أو المتقاربين إذ لا فاصل بينهما ؛ وإدغام كبير وفيـه يفصل بين الصوتين المتجانسين أو المتقاربين صوت لين قصير . وينسب هذا النوع الأخير من الإدغام إلى « أبى عمرو » ، أحد القراء السبعة .

والإدغام بنوعيه عبارة عن فناء الصوت الأول فى الثانى ، بحيث ينطق بالصوتين صوتاً واحداً كالثانى ، وهو لهذا تأثر رجعى . وهو جائز الوقوع فى كل صوت من أصوات اللغة العربية غير أنه نادر بين أصوات الحلق ، لأنها ليست بأصل للإدغام كما يقول (المبرد) فى « المقتضب » . ولعل السر

---

(١) أنظر صفحة ٦٩ .

فى إظهار النون ولام التعريف مع أصوات الحلق أن هذه الأصوات غير مستعدة بطبيعتها لفناء الأصوات فيها .

(٣)

الأمثلة القرآنية الجائز فيها الإدغام

لم ترو لنا فى القراءات أمثلة للإدغام فى كل أصوات اللغة التى يجوز الإدغام فيها ، ولكن ماروى لنا يكفى لتكوين فكرة واضحة عما يبرر إدغام صوت فى آخر فى اللغة العربية .

والأمثلة القرآنية للإدغام ، حين نستعرضها صوتاً صوتاً ، باحثين عما يمكن أن يدغم فيه كل صوت ، نلحظ أنها قد خلت من إدغام أصوات الحلق فى مجانسها أو مقاربها ، إلا مثلا واحداً أباح الإدغام فيه كثير من القراء ، وهو إدغام الحاء فى العين فى قوله تعالى : « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فقدفَازَ(١) » . والقوانين الصوتية تبرر هذا الإدغام ، لأنه لا فرق بين الحاء والعين إلا فى أن الأولى مهموسة والثانية نظيرها المجهور . كما قد خلت تلك الأمثلة القرآنية من إدغام أصوات الإطباق فى غيرها من الأصوات ، إلامثلا واحداً أباح إدغامه كثير من القراء ، وهو حين تلتقى الضاد مع الشين فى قوله تعالى : « فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ(٢) » . على أن القراء قد اختلفوا حتى فى رواية هذه الحالة المفردة . ولهذا لن نحاول

---

(١) سورة آل عمران « الآية ١٨٥ » .

(٢) سورة النور « الآية ٦٢ » .

تبرير إدغام الضاد فى الشين من الناحية الصوتية ، لأننا غير واثقين كل الثقة من النطق الأصلى للضاد .

ويظهر أن السر فى عدم ورود أمثلة قرآنية لأصوات الإطباق مدغمة فى غيرها ، هو أن شيوع هذه الأصوات فى اللغة قليل ، وقلة شيوع الصوت تجعله أقل تعرضاً لظاهرة الفناء فى غيره . هذا إلى أن هذه الأصوات تحتاج إلى جهد عضلى كبير فى النطق بها ، مما يستلزم أنه لابد لفنائها من الكلام ، أن يمر الصوت فى أكثر من مرحلة قبل الفناء فى غيره ، مثل الانتقال من الاستعلاء إلى الاستفال ، أو من الشدة إلى الرخاوة ، أو من الجهر إلى الهمس ، أو نحو ذلك .

ومما يستحق الذكر أن الأمثلة القرآنية قد خلت أيضاً من ذكر « الزاى » و « الشين » مدغمتين فى غيرهما من الأصوات ؛ وليس لهذا ما يبرره من الناحية الصوتية سوى مجرد المصادفة .

بقى إذن أن نستعرض الأصوات التي تدغم فى مجانسها أو مقاربها ، كما رويت لنا فى الأمثلة القرآنية ، وكتب القراءات .

البـــاء

روت كتب القراءات أن هذا الصوت يجوز إدغامه فى الميم والفاء ، مثل : « يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ[1] » ومثل : « وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ[2] » .

---

(١) سورة هود « الآية ٤٢ » .
(٢) سورة الرعد « الآية ٥ » .

أما إدغام الباء فى الميم فيبرره من الناحية الصوتية أن مخرج كل منهما الشفتان ، وأنه لا فرق بين الباء والميم إلا فى أن الهواء مع الأولى يتخذ مجراه من الفم ، ومع الثانية يتخذ مجراه من الأنف ، فعملية الإدغام هنا هى مجرد انتقال الصوت الأول من بين أصوات الفم ؛ إلى نظير له بين أصوات الأنف وقد سبق شرح هذا .

وأما إدغام الباء فى الفاء ، فأقل شيوعاً ، لأنه يستلزم أولا قلب الباء ، وهى مجهور ، إلى نظيرها المهموس وهو الصوت الشائع فى اللغات الأوربية والذى يرمز إليها بالرمز (P) ، وهو صوت شديد انفجارى ، مخرجه الشفتان ، وإذا لم ينحبس معه النفَس وأصابته صفة الرخاوة بأن يسمع له صفير ، انقلب إلى صوت قريب الشبه جداً بالفاء ؛ لأنها رخوة مهموسة ، وبهذا يتم الإدغام . فعملية الإدغام هنا تبدأ أولا بهمس الباء لتشبه الفاء المهموسة ، ثم يلى هذا أن يسمح للهواء معها بالمرور ، بحيث يحدث حفيفاً أو صفيراً ككل الأصوات الرخوة . فإذا تم هذا للباء صارت كالفاء فى كل الصفات ، مخرجاً وصفة ، وهو ما يبرر هذا النوع من الإدغام .

التـــاء

يدغم هـذا الصوت فى عدة أصوات . وقد روت كتب القراءات أمثلة لـكل حالة . فهى تدغم ادغاماً صغيراً فى كل من الأصوات الآتية :

١ — «الثاء» مثل قوله تعالى « أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ[١] »

---

(١) سورة هود « الآية ٩٥ » .

وقد تم فى هذا الإدغام عمليتان : الأولى أن نسمح للهواء مع التاء بالمرور لتصبح رخوة كالثاء ، والثانية أن مخرج الصوت الأول قد انتقل إلى الأمام متجهاً نحو مخرج الأصوات اللثوية ، وبهذا ماثل الصوت الأول الصوت الثانى كل المماثلة فتم الإدغام .

٢ — « الجيم » مثل قوله تعالى « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا »(١) وفى هذا الموضع جهر أولا بالتاء ، فصارت « دالا » ثم انتقل مخرج الدال من أصول الثنايا العليا إلى وسط الحنك ، وبهذا التقى بالجيم ، لأنها أقرب أصوات وسط الحنك إلى الدال فى الصفة وبهذا تم الإدغام .

٣ — « الظاء » مثل قوله تعالى : وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا(٢) » . وهنا جهرنا أولا بالتاء فصارت دالا ، لأن الصوت الثانى أى الظاء صوت مجهور ، ثم سمح للهواء معها بالمرور فصارت رخوة ، ثم انتقل مخرجها إلى الأصوات اللثوية ، وبهذا صارت « ذالا » ، ولا فرق بين الذال والظاء إلا فى أن الصوت الثانى من أصوات الإطباق . فالإدغام هنا له ما يبرره من الناحية الصوتية .

٤ — «السين» مثل قوله تعالى : « وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ(٣) » وكل الذى حدث فى هذا الإدغام هو أن سمحنا للهواء بالمرور مع التاء ، فأصبحت رخوة ، وبهذا أشبهت كل المشابهة السين فى رخاوتها وهمسها فتم الإدغام .

---

(١) سورة النساء « الآية ٥٦ » .

(٢) سورة الأنعام « الآية ١٤٦ » .

(٣) سورة يوسف « الآية ١٩ » .

٥ — «الصاد» مثل قوله تعالى : «أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ[١]»، أصاب التاء هنا ما أصابها فى المثال السابق مع السين . فحين سمح للهواء معها بالمرور وصارت رخوة ، أشبهت السين كل المشابهة . وليس هناك فرق بين السين والصاد ، إلا فى أن الثانية مطبقة . وهكذا تم الإدغام بين التاء والصاد .

٦ — « الزاى » مثل قوله تعالى : « مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً[٢] » . وهنا جهر بالتاء أولا ، فصارت « دالا » لأن الزاى مجهورة ثم سمح للهواء معها بالمرور ، فأصبحت رخوة تحدث عند النطق بها صفيراً كالزاى ، وبذلك جاز إدغامها فى هذا الموضع .

وتدغم التاء إدغاما كبيرا فى الأصوات الآتية :

١ — « الذال » مثل قوله تعالى : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ[٣] » سقط أولا صوت اللين الفاصل بين التاء والذال ليتم تجاور الصوتين — وكذلك يجب أن يحدث مثل هذا فى كل إدغام كبير — ثم انتقلت التاء بمخرجها إلى مخرج الأصوات اللثوية ، مع السماح للهواء بالمرور حين النطق بها لتصبح رخوة كالذال ؛ وبذلك تمت المماثلة بين التاء والذال وأدغمت الأولى فى الثانية .

٢ — « الشين » مثل قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ

---

(١) سورة النساء « الآية ٩٠ »

(٢) سورة الإسراء « الآية ٩٧ » .

(٣) سورة هود « الآية ١١٤ »

لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً [١] » . الإدغام هنا نادر يصعب أن تبرره القوانين الصوتية كما يراها المحدثون ، لأن سقوط صوت اللين من تاء « أربعة » يقلب التاء هاء . فإذا سمحنا عند النطق بها وهى مشكلة بالسكون أن تكون تاء ، كما يحدث فى بعض اللهجات العربية الحديثة ، أمكن أن نفسر إدغام التاء فى الشين . ويظهر أن من أدغموا فى هذا الموضع قد راعوا هذا ، ولعل من اللهجات العربية القديمة ما نطق بالتاء المربوطة حين تشكل بالسكون تاء . والذى يمكن أن يكون قد حدث للتاء فى هذا الإدغام أن مخرجها انتقل إلى وسط الحنك ، مع السماح للهواء بالمرور حين النطق بها لتصير رخوة كالشين . وبهذا اتحد الصوتان همساً ورخاوة ومخرجاً فتم الادغام .

٣ — « الضاد » مثل قوله تعالى : « وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا [٢] » ويظهر أن هذا الإدغام قد تم بعد أن تطور النطق بالضاد ، فأصبحت كما ينطق بها الآن أى الصوت المطبق للدال . [٣] وعلى هذا فقد جهر بالتاء أولا فأصبحت دالا ، ولا فرق بين الدال والضاد الحديثة إلا فى أن الثانية مطبقة . وهكذا يتم الادغام فى هذا المثال الذى لم يرو غيره فى القرآن الكريم .

٤ — « الطاء » مثل قوله تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنَ مَآبٍ » [٤] . وفى هذا الموضع إذا افترضنا أن النطق بالطاء هنا هو النطق القديم ، أى ما يشبه الضاد الحديثة ، كان الادغام فى هذا

---

(١) سورة النور « الآية ٤ » .

(٢) سورة العاديات « الآية الأولى » .

(٣) انظر صفحة ٥٨

(٤) سورة الأعراف « الآية ١٧٦ » .

المثال كالإدغام فى المثال السابق . أما إذا افترضنا أن الطاء هنا ، كان ينطق بها وقت الإدغام كما ينطق بالطاء الآن ، أى مهموسة ، فلا فرق إذن بينها وبين التاء إلا فى الإطباق ، وهكذا يتم الإدغام .

الثـاء

تدغم الثاء إدغاماً صغيراً فى الأصوات الآتية :

١ — « الذال » مثل قوله تعالى : « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا[١] » ؛ وهو المثل الوحيد فى القرآن الكريم . والإدغام هنا واضح جلى ، لأنه لا فرق بين الثاء والذال إلا فى أن الأولى مهموسة والثانية نظيرها المجهور . فمتى جهر بالثـاء أصبحت « ذالا » ، وبذلك يكون الإدغام بين صوتين متماثلين كل المماثلة .

٢ — « التاء » مثل قوله تعالى : « قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ[٢] » ؛ وهنا انتقل مخرج « التاء » إلى الأصوات اللثوية ، مع السماح للهواء بالمرور معها لتصبح رخوة بعد أن كانت شديدة ، وبذلك يتحد الصوتان فى الرخاوة والمخرج والهمس فيتم الإدغام .

وتدغم إدغاماً كبيراً فى الأصوات الآتية :

١ — « السين » مثل قوله تعالى : « وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ[٣] » ؛

---

(١) سورة الأعراف « الآية ١٧٦ » .
(٢) سورة الكهف « الآية ١٩ » .
(٣) سورة النمل « الآية ١٦ » .

وكل الذى حدث فى هذا الإدغام أن الثاء انتقل مخرجها قليلا إلى الوراء، فصادف مخرج أصوات الصفير، وبذلك اتحدت مع السين فى الهمس والرخاوة فجاز الإدغام.

٢ — « الشين » مثل قوله تعالى: « فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا (١) ». انتقل مخرج الثاء إلى وسط الحنك، فشابهت الشين فى الهمس والرخاوة وبذلك تم الإدغام.

٣ — « الضاد » مثل قوله تعالى: « هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢) ». لابد هنا من عمليتين: جهر الثاء لتصبح « ذالا »، لأن الضاد صوت مجهور، ولا بد أيضاً من انحباس النفس معها لتصبح صوتاً شديداً انفجارياً، مع انتقال فى المخرج لتقرب من الضاد، ويتم الادغام.

الجيم

تدغم الجيم فى صوتين إدغاماً كبيراً:

١ — « الشين » مثل قوله تعالى: « ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِى الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ (٣) ». ويتم الإدغام فى هذا الموضع بأن تفقد الجيم جهرها، ثم تزداد رخاوتها، وبذلك تماثل الشين فى المخرج والهمس والرخاوة.

---

(١) سورة الاعراف « الآية ١٩ ».

(٢) سورة الذاريات « الآية ٢٤ ».

(٣) سورة الفتح « الآية ٢٩ ».

٣ — « التاء » مثل قوله تعالى : « مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ[(١)] » . وهنا يجب همس الجيم أولا ، لأن التاء صوت مهموس ، ثم ينتقل مخرجها نحو الثنايا ، مع انحباس النفس انحباساً كاملا لتصبح فى شدة التاء ، وهكذا يتم الأدغام .

الدال

تدغم الدال إدغاماً صغيراً فى الأصوات الآتية :

١ — الذال : مثل قوله تعالى : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ[(٢)] » . وهنالابد من انتقال مخرج الدال إلى الأصوات اللثوية ، ثم السماح للهواء بالمرور فى حالة النطق بهـا ، لتصبح رخوة كالذال ، وهكذا يتم الإدغام .

٢ — الظاء : مثل قوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ[(٣)] » إذا جاز إدغام الدال فى الذال كما فى المثال السابق ، جاز إدغامها أيضاً فى الظاء ، لأنه لا فرق بين الذال والظاء إلا فى الإطباق .

٣ — الضاد : مثل قوله تعالى : « قَدْ ضَلُّوا ضَلَالاً بَعِيـداً[(٤)] » . إذا افترضنا أن النطق بالضاد فى هذا المثال هو النطق القديم كان الإدغام هنا كالإدغام فى المثال السابق ، أو بعبارة أدق أشبهه شبهاً كبيراً ؛ أما على افتراض

---

(١) سورة المعارج « الآية الثالثة والرابعة » .

(٢) سورة الأعراف « الآية ١٧٩ » .

(٣) البقرة « الآية ٢٣١ » .

(٤) سورة النساء « الآية ١٦٧ » .

أن نطق الضاد هنا كالنطق الحديث لها ، فليس هناك حينئذ فرق بين الدال والضاد إلا فى الإطباق .

٤ — « الجيم » : مثل قوله تعالى: « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ[١] » . ينتقل مخرج الدال إلى وسط الحنك ، مع السماح قليلا بمرور الهواء ، و بذلك تقل شدتها فتشبه الجيم ، وهكذا يتم الإدغام .

٥ — « الشين » : مثل قوله تعالى : « قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا[٢] » . الإدغام هنا كالإدغام فى المثال السابق ، غير أن الدال هنا يجب همسها ، لأن الشين صوت مهموس .

٦ — « السين » : مثل قوله تعالى : « قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ[٣] » . لا بد هنا من همس الدال والسماح للهواء معها بالمرور لتصبح رخوة ، و بذلك تماثل السين فى الهمس والرخاوة .

٧ — « الزاى » : مثل قوله تعالى : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ[٤] » . لجواز الإدغام هنا يجب أن يسمح للهواء بالمرور مع الدال لتصبح رخوة ، وهكذا تشبه الزاى فى المخرج والرخاوة والجهر .

٨ — « الصاد » : مثل قوله تعالى : « وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا

---

(١) سورة التوبة « الآية ١٢٨ » .

(٢) سورة يوسف « الآية ٣٠ » .

(٣) سورة المائدة « الآية ١٠٢ » .

(٤) سورة الملك « الآية ٥ » .

الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ[1] » . إدغام الدال هنا كإدغامها فى السين ، لأنه لا فرق بين السين والصاد إلا فى الإطباق .

٩ — « الثاء » : مثل قوله تعالى : « وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا[2] » لا بد هنا من همس الدال ، وجعلها رخوة ، مع الانتقـال بمخرجها إلى الأصوات اللثوية .

الذال

تدغم الذال إدغاماً صغيراً فى الأصوات الآتية :

١ — « التاء » : مثـل قوله تعالى : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ[3] » . ينتقل مخرج الذال إلى الوراء قليلا ، ثم ينطق بها مهموسة شديدة ، وهكذا يتم الإدغام .

٢ — « الدال » : مثل قوله تعالى : « وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ[4] » . الإدغام هنا كالإدغام فى المثال السابق ، غير أن الذال هنا تحتفظ بجهرها لأن الدال مجهورة .

٣ — « الجيم » : مثل قوله تعالى : « إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ[5] » . ينتقل مخرج الذال إلى وسط الحنك ، فتشبه الجيم لأن أقرب أصوات وسط

---

(١) سورة الإسراء « الآية ٨٩ » .
(٢) سورة آل عمران « الآية ١٤٥ » .
(٣) سورة إبراهيم « الآية ٥ » .
(٤) سورة الكهف « الآية ٣٩ » .
(٥) سورة الصافات « الآية ٨٤ » .

الحنك إلى الذال هى الجيم ، فكلاهما مجهور وإن كانت الجيم أكثر شدة .

٤ — « السين » : مثل قوله تعالى : « لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ[(١)] » . تهمس الذال أولا ، ثم ينتقل مخرجها قليلا إلى الوراء لتشبه السين همساً ورخاوة .

٥ — « الزاى » : مثل قوله تعالى : « وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ[(٢)] » الإدغام هنا كالإدغام فى المثال السابق ، غير أن الذال تحتفظ بجهرها .

٦ — « الصاد » : مثل قوله تعالى : « وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ[(٣)] » . الإدغام هنا كالإدغام مع السين ، لأنه لا فرق بين السين والصاد إلا فى الإطباق .

الراء

لا تدغم الراء فى الأمثلة القرآنية إلا فى اللام ، مثل قوله تعالى : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ[(٤)] » ؛ والذى يبرر هذا الإدغام هو قرب المخرج مع اتحاد فى الصفة ، لأن كلا منهما صوت متوسط بين الشدة والرخاوة ، ولا يكاد يسمع للراء حفيف ، مثلها فى ذلك مثل أشباه أصوات اللين التى منها اللام . هذا إلى أن الراء فى نظر المحدثين من أوضح الأصوات الساكنة فى السمع ، فهى لهذا تشبه اللام

(١) سورة النور « الآية ١٢ » .
(٢) سورة الأنفال « الآية ٤٨ » .
(٣) سورة الأحقاف « الآية ٢٩ » .
(٤) سورة آل عمران « الآية ٣١ » .

والنون والميم التى تعتبر حلقة وسطى بين أصوات اللين والأصوات الساكنة ، وكل الذى يتطلبه إدغام الراء فى اللام هو ترك التكرار المختصة به الراء .

السين

تدغم السين إدغاماً كبيراً فى صوتين هما الزاى والشين :

١ — « الزاى » : مثل قوله تعالى : « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ[١] » . وهو إدغام واضح جلى ، إذ لا فرق بين السين والزاى إلا فى أن الأولى مهموسة ونظيرها المجهور هو الزاى .

٢ — « الشين » : مثل قوله تعالى : « وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً[٢] » . يتم الإدغام هنا بانتقال مخرج السين إلى وسط الحنك ، وبهذا تشبه الشين همساً ورخاوة .

الفــاء

تدغم فى صوت واحد هو الباء ، فى مثل واحد فى القرآن الكريم وهو : « إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ[٣] » . ولم يرو الإدغام هنا إلا عن الكسائى ، فى حين أن باقى القراء أظهروها . ولتبرير هذا الإدغام يمكن أن يقال إن الفاء جهر بها أولا ، فأصبحت ذلك الصوت الشائع فى اللغات

(١) سورة التكوير « الآية ٧ » .
(٢) سورة مريم « الآية ٥ » .
(٣) سورة سبأ « الآية ٩ » .

الأوربية والذى يرمز إليه بالرمز (V) ، ومثل هـذا الصوت إذا ذهبت رخاوته بانحباس الهواء معه ليصبح انفجارياً ، أشبه الباء كل الشبه ، وبهذا يمكن الإدغام .

القاف

تدغم إدغاماً كبيراً فى صوت واحد وهو الكاف ، مثل قوله تعالى : « وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً[١] » . لأن القاف ، كما ينطق بها الآن ، لا فرق بينها و بين الكاف إلا فى أن القاف أعمق قليلا في أقصى الحنك .

الكاف

تدغم إدغاماً كبيراً فى صوت واحد وهو القاف ، مثل قوله تعالى : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ[٢] » .

وقد اشترط القراء فى إدغام القاف فى الكاف ، أو العكس ، أن يكون قبل الصوت المدغم متحرك .

اللام

هذا الصوت لكثرة شيوعه فى اللغة العربية ، طرأ عليه ما لم يطرأ على غيره من الأصوات الساكنة ، إذ نلحظ سرعة تأثره بما يجاوره من الأصوات ،

---

(١) سورة نوح « الآية ١٤ » .

(٢) سورة البقرة « الآية ٣٠ » .

وميله إلى الفناء فى معظم أصوات اللغة . فلام التعريف كما يقول « المبرد » فى « المقتضب » ، تدغم فى ثلاثة عشر صوتاً ، ولا يجوز فى اللام معهن إلا الإدغام ، فإن كانت اللام غير لام المعرفة جاز إدغامها فى جميع هذه الأصوات الثلاثة عشر ، وكان فى بعض أحسن منه فى البعض الآخر .

وقد رويت لنا اللام التى ليست للتعريف مدغمة ، فى الأمثلة القرآنية فى عشرة أصوات فقط هى :

الراء . التاء . الثاء . الزاى . السين . الضاد . الطاء . الظاء . النون . الذال .

وأمثلتها فى القرآن الكريم هى على الترتيب :

١ — « قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ[1] » والإدغام هنا إدغام كبير ، يشترط فيه أن يكون ما قبل الصوت المدغم متحركا .

٢ — « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ[2] »

٣ — « هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ[3] » .

٤ — « بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ[4] » .

٥ — « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً[5] » .

---

(١) سورة هود « الاية ٨١ » .

(٢) سورة المائدة « الاية ٥٩ » .

(٣) سورة المطففين « الاية ٣٦ » .

(٤) سورة الرعد « الاية ٣٣ » .

(٥) سورة يوسف « الاية ٨٣ » .

٦ — « بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ[١] » .

٧ — « بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ[٢] » .

٨ — « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَداً[٣] » .

٩ — « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ[٤] » .

١٠ — « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ[٥] » .

والذى يبرر إدغام اللام فى كل هـذه الأصوات ، أن اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعاً فى اللغة العربية ، لأن نسبة شيوعها حوالى ١٢٧ مرة فى كل ألف من الأصوات الساكنة . ولا شك أن الأصوات التى يشيع تداولها فى الاستعمال تـكون أكثر تعرضاً للتطور اللغوى من غيرها . هذا إلى أن جميع الأصوات التى تدغم فيها اللام تندرج تحت تلك المجموعة الـكبرى من الأصوات المتقاربة المخارج التى سبق شرحها ما عدا الشين ، ولهذا يعد إدغام لام التعريف فى الشين أمراً غريباً ، قد يبرره أن الشين أقرب أصوات الحنك للمجموعة الـكبرى التى سبقت الإشارة إليها .

---

(١) الاحقاف « الاية ٢٨ » .

(٢) سورة النساء « الاية ١٥٦ » .

(٣) سورة الفتح « الآية ١٢ » .

(٤) سورة الأنبياء « الاية ١٨ » .

(٥) سورة آل عمران « الاية ٢٨ » .

الفصل السابع

(١)

التطور التاريخى للأصوات

اتضح لنا فيما سبق أن الضاد والقاف والطاء[1]، كما وصفت لنا فى كتب القراءات، قد أصابها بعض التطور، حتى صارت إلى النطق الحديث الشائع بين قرائنا الآن. فقد انتقل مخرج الضاد إلى الدال، وأصبحنا الآن لا نفرق بين الدال والضاد إلا فى الإطباق. كما أن كلا من القاف والطاء القديمتين قد أصبح مهموساً فى نطقنا الحديث، بعد أن كانتا مجهورتين. وهذا نوع من التطور التاريخى الذى قد يعرض للأصوات اللغوية.

هذا إلى أن أصواتاً أخرى من أصوات اللغة العربية قد أصابها نوع من التطور التاريخى، حتى صارت إلى النطق الحديث فى لغة الكلام الآن. ويضيق المقام هنا عن استقصاء هذا فى كل اللهجات العربية الحديثة، ولهذا نكتفى بضرب بعض الأمثال: فقد تطورت الجيم العربية الفصيحة إلى الجيم القاهرية الخالية من التعطيش، أو الجيم الشامية الشديدة التعطيش. وليس لهذا ما يبرره سوى انتقال المخرج من مكانه فى كلا الحالتين: مرة إلى الوراء حتى أصبح من مخرج الكاف، فكانت الجيم القاهرية التى هى صوت شديد مجهور،

---

(١) انظر صفحات ٥٦، ٥٨، ٧٧.

نظيره المهموس هو الكاف ، وأخرى إلى الأمام حتى أصبح من مخرج الشين ، وتلك هى الجيم الشامية التى هى صوت مجهور نظيره المهموس هو الشين . وقد ازدادت الجيم في الحالة الأولى شدة وفى الثانية رخاوة .

كذلك ينطق بالذال العربية « دالا » فى لغة الكلام المصرية ، وأحياناً زاياً . فما أصاب الذال فى الحالين هو انتقال مخرجها قليلا إلى الوراء ، غير أنه فى الحالة الأولى قد أصبحت صوتاً شديداً ، وفى الثانية قد احتفظت برخاوتها .

وتطورت « الثاء » فى لغة الكلام المصرية « إلى تاء » فى معظم الأحيان ، وإلى « سين » فى قليل من المواضع . وقد انتقل مخرجها إلى الوراء قليلا فى الحالين ، غير أنها أصبحت شديدة فى حالة قلبها « تاء » واحتفظت برخاوتها فى الحالة الثانية .

والظاء العربية ينطق بها أحياناً « ضاداً » وأحيانا « زاياً » مطبقة ، وقد احتفظت بالإطباق فى الحالين ، وبالرخاوة فى الحالة الثانية فقط .

أما « القاف » فأحياناً نسمعها فى اللهجات المصرية « همزة » ، وأخرى « جيما » كالجيم القاهرية خالية من التعطيش . ومن الصعب تفسير الظاهرة الأولى أى قلب « القاف » همزة ، ويظهر أن هذا التطور كان نتيجة انتقال القاف من مخرجها وتعمقها بين أصوات الحلق ، فاستبدل بها الهمزة التى هى أقرب أصوات الحلق شبهاً بالقاف من حيث الشدة ، لأن جميع أصوات الحلق ما عدا الهمزة أصوات رخوة .

أما قلب القاف « جيما » كالجيم القاهرية فهو مجرد انتقال فى مخرجها

قليلا إلى الأمام ، ولأن القاف فى الأصل صوت مجهور استبدل بها « الجيم » التى هى صوت مجهور أيضاً . ويعدّ تطور القاف إلى « الجيم » من الأدلة على أن القاف كانت فى الأصل القديم مجهورة كما سبقت الإشارة إلى هذا .

هذا وقد روى لنا النحاة ومؤلفو المعاجم كلمات متفرقة ، زعموا أن كلا منها ينطق بطريقتين مثل :

[صراط = سراط] . ومثل [لعلّ = رعلّ] . ومن العسير الحكم على الأصل فى النطقين ، لنحاول تبرير هذا التطور الصوتى ، إلا أن نتخذ لهجة خاصة نجعلها هى الأصل الذى نقيس عليه أو ننسب إليه ولتكن لهجة قريش مثلا . غير أن روايات النحاة ناقصة مبتورة ، يندر أن تنسب النطق الخاص لقبيلة ما ، بل تكتفى فى معظم الأحيان بالإشارة إلى أن من العرب من ينطق هكذا . لهذا لا نستطيع أن نميز الأصل من الفرع . وربما لم يكن هناك أصل ولا فرع ، بل إن الصوت الواحد فى بعض الكلمات نطق به نطقاً مختلفاً فى بيئات مختلفة . وكل هذا مما يجب أن تعرض له البحوث المستقلة فى اللهجات العربية القديمة ، وفى تطور الأصوات العربية .

ولا بأس من ذكر بعض الأمثلة التى رواها النحاة وأصحاب المعاجم :

أمغرت الشاة = أنغرت . رَفَلَ = رفن .

أصيلالا = أصيلانا . اضطجع = الطجع

عصيكا = عصيتَ . استخذ = اتّخذ

لص = لصت . جدف = جدث

حنظل = حمظل . بنان = بنام

أسود قاتم = قاتن . مدحه = مدهه

أغن = أخن . وكنة = وقنة

لعلّ = لعنّ . الأبعاد = الأبعاط[1]

تلعثم = تلعذم .

وقد أفرد ابن جنى فى كتابه الخصائص فصلين لهذا النوع من الكلمات ، ووضع لها قانوناً عاماً هو « تصاقب الألفاظ لتصاقب المعانى » وسماه بالاشتقاق الأكبر .

فإذا أضيف إلى هذا ما رواه القدماء عن [عنعنة تميم وقُطعة طيء وكشكشة أسد وشنشنة اليمن وكسكسة ربيعة واستنطاء هذيل وعجعجة قضاعة وتلتلة بهراء وطمطمانية حمير] ، رأينا الأمر أكبر من أن يتعرض له هنا بالتفصيل ، وأولى به بحث خاص فى اللهجات العربية القديمة ، ليتضح لنا أمور ثلاثة :

١ — الصوت الأصلى وما تطور إليه .

٢ — الأصوات التي مرجع اختلاف النطق بها اختلاف البيئات ، وليس بينها أصل أو فرع .

٣ — الكلمات التي تشابهت أصواتها لمجرد المصادفة ولا علاقة بينها من الناحية الاشتقاقية .

---

(١) يؤيد هذا المثال ما ذكرناه فى صفحة ٥٦ ، من أن الطاء القديمة هى الضاد الحديثة .

(٢)

المخالفة (Dissimilation)

من التطورات التى تعرض أحياناً للأصوات اللغوية ما يمكن أن يسمي بالمخالفة ، وهى أن الكلمة قد تشتمل على صوتين متماثلين كل المماثلة فيقلب أحدهما إلى صوت آخر لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين . وقد دلت البحوث التى قام بها علماء الأصوات ، أن ظاهرة المخالفة قد شاعت فى كثير من اللغات السامية وليست هذه الظاهرة إلا تطوراً تاريخياً فى الأصوات . ولم يفطن علماء العربية القدماء لهذه الظاهرة ، أو لم يولوها ما تستحق من عناية ، واضطرب تفسيرهم لها . فقد أشار إليها سيبويه فى باب سماه « باب ماشذ فأبدل مكان اللام لكراهية التضعيف وليس بمطرد » ، ثم ضرب أمثلة لهذا [كتسريت وتظنيت وتقصيت] . كما أشير إلى هذا أيضاً فى أمالى الشجرى حين قال « وأما ما حذفوا منه وعوضوا فنحو تظننت قالوا تظنيت فعوضوا من النون الياء » ثم ضرب أمثلة [تتلعى من اللعاعة . وتسريت من السر . وتقضى من التقضض ولا أملاه بدلا من أملله . ودساها من دسسها . و يتمطى من يتمطط] .

والحقيقة أن الأمر أكبر من تلك الإشارات التي لا تقنع الباحث المدقق . لأننا نلحظ أن كثيراً من الكلمات التى تشتمل على صوتين متماثلين كل المماثلة يتغير فيها أحد الصوتين إلى صوت لين طويل — وهو الغالب — أو إلى أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين فى بعض الأحيان ، ولا سيما اللام

والنون . والسر فى هذا أن الصوتين المتماثلين يحتاجان إلى مجهود عضلى للنطق بهما فى كلمة واحدة . ولتيسير هذا المجهود العضلى يقلب أحد الصوتين إلى تلك الأصوات التى لا تستلزم مجهوداً عضلياً ، كأصوات اللين وأشباهها .

وهذا التطور هو إحدى نتائج نظرية السهولة التى نادى بها كثير من المحدثين ، والتى تشير إلى أن الإنسان فى نطقه يميل إلى تلمس الأصوات السهلة التى لا تحتاج إلى جهد عضلى ، فيبدل مع الأيام بالأصوات الصعبة فى لغته نظائرها السهلة ، وقد اعترف القدماء بكراهية التضعيف ، ولعلهم كانوا يريدون بهذا أنه يحتاج إلى مجهود عضلى .

وإن نظرة سريعة فى كتب اللغة وقواميسها ساعدتنى على جمع عشرات من أمثلة ، فيها معتل العين أو اللام يشترك فى المعنى مع مضعف من نفس المادة . ويظهر أن الأصل فى كل هذه الأمثلة هو التضعيف ، ثم سهل مع تطور الزمن بالاستعاضة عن أحد الصوتين المتماثلين بالياء أو الواو لخفتهما ، وفى بعض الأحيان استعيض عن الصوت بأحد أشباه أصوات اللين كاللام والنون ، وإن كان هذا قليلا فى اللغة العربية .

وهاك أمثلة لتأييد هذا الرأى :

١ — الطحّ : البسط . طحا كسعى ، بسط .

٢ — المحّ : صفرة البيض ، والماح صفرة البيض .

٣ — الجبّ والجوب : القطع

٤ — عسّ : طاف بالليل . والعوس : الطوفان بالليل

٥ — زحّه : نحاه عن موضعه . زاح يزيح : بعد وذهب وأزحته ..

٦ — قيراط أصلها قرّاط . ودينار : أصلها دنّار .

٧ — قصيت أظفارى : قصصت

٨ — وأما بفعل الصالحين فيأتمى : فيأتمّ .

٩ — غمّ الهلال حال دونه سحاب رقيق ، وغامت السماء .

١٠ — حنّ عليه : حنا عليه .

فقد قلب أحد الصوتين المدغمين فى كل هذه الأمثلة إلى صوت لين طويل.

وهناك بعض الأمثلة التى يحتمل فيها أن أحد الصوتين المتماثلين قلب إلى أحد أشباه أصوات اللين :

١ — تشغّر فى قبيح تمادى وتعمق : الشنغير السيء الخلق .

٢ — تحدّس الأخبار أراد أن يعلمها من حيث لا يعلم به. تحندس الليل : أظلم ، فعلاقة الخفاء بين الفعلين واضحة .

٣ — الرسّ : دفن الميت ؛ والرمس : الدفن أيضاً .

٤ — العبّاس : الأسد ؛ والعنبس : الأسد أيضاً .

يتضح من كل ما تقدم أن الأصوات فى تطورها تهدف إلى الاقتصاد فى الجهد العضلى ، فالمماثلة تقرّب بين الأصوات المتجاورة فى الصفة والمخرج ، وقد يصل هذا التقريب بين الصوتين المتجاورين أن يصبحا متماثلين تمام التماثل ، وهنا قد تبدأ عملية المخالفة التى تهدف أيضاً إلى التقليل من الجهد العضلى ، فنرى أحد المتماثلين المتجاورين يقلب إلى صوت لين طويل أو إلى ما يشبه أصوات اللين كاللام والنون ، وفى هذا أقصى مراحل التيسير فى الجهد العضلى . فحين نصوغ « افتعل » من الفعل « ظلم » نلحظ أن « اظتلم » قد تجاورت فيها

الظاء والتاء، وهما مختلفتان فى الجهر والهمس والشدة والرخاوة والإطباق والاستفال، فقربت مسافة الخلف بينهما لتيسير النطق وأصبح الفعل « اظطلم » ، ثم زاد التيسير حين اتحد الصوتان المتجاوران تمام الاتحاد وأصبح الفعل « اظّلم » وهكذا تماثل الصوتان وهو أقصى مايصل إليــه التيسير فى عملية المماثلة . فإذا افترضنا أن أحد العرب نطق بهذا الفعل على صورة جديدة وهى « انظلم »(١) لايعدو الأمر أنه قد لجأ إلى عملية المخالفة ليخالف بين الظاءين المتجاورين بأن استبدل بإحداهما « نونا » ليزيد النطق تيسيراً . وإذا علمنا أن الأصوات تختلف فيما تتطلبه من جهد عضلى للنطق بهـا وأن أشق الأصوات هى المطبقة والرخوة بوجه عام ، أدركنا أن المخالفة لاتكاد تتم إلا حين يتجاور صوتان متماثلان من أصوات الإطباق أو الأصوات الرخوة . على أن المخالفة قد تكون فى النادر من الأحيان بين الأصوات الشديدة مثل : « إجّار » التى روى فيها أيضاً « إنجار » وكلاهما بمعنى سطح المنزل . وفى حديث الهجرة : استقبل الناس فى المدينة النبى صلى الله عليه وسلم على الأناجير . وكذلك « إجّاص » روى فيها أيضاً « إنجاص » . فشرط المشقة التى نصف بها تجاور المتماثلين أن يكونا من غـير الأصوات التي تشبه أصوات اللين ، فتجاور اللامين أو النونين لايحتاج إلى تيسير ، وعليه لاتتناوله عملية المخالفة إلا فى النادر من الأحيان .

---

(١) رويت هذه الصيغة فى المطولات من كتب النحاة .

الفصل الثامن

الطفل والأصوات اللغوية

— ١ —

تطور الصوت اللغوى عند الطفل :

قال أحد الفلاسفة « لم يقم المرء فى كل سنى حياته الطويلة بشىء يثير الدهشة ويدعو إلى العجب أكثر مما قام به حين تعلم النطق » .

فقد بدأ الطفل مراحل نطقه بالصراخ ، الذى لم يرد منه فى أول الأمر التعبير عما يشعر به . ولكنا نسارع عادة إلى الطفل حين يصرخ رغبة منا فى عونه ومساعدته . فلا يلبث الطفل أن يربط عملية الصراخ بما يقدم إليه أهله من وسائل الترفيه عنه ، ويتخذ هذا الصراخ سلاحا يسله كلما شاء إحدى تلك الوسائل . فالصراخ الذى لم يكن فى أول الأمر إلا نشاطاً عضلياً ، قد يصبح بعد قليل من الزمن عملا إرادياً عند الأطفال ، يستغله الطفل دون رحمة لمن يقضون الليل ، وهو فوق أذرعتهم يغنون له الأغانى أو يؤرجحونه فوق الأيدى مفضلا كل هذا على النوم فى سريره هادئاً مطمئناً .

وخير وسيلة هى أن يترك الطفل يبكى متى تأكد الأبوان أنه قد نال قسطه من الغذاء والنظافة ، ففى بكاء الطفل تمرين لعضلات صوته .

ثم يلى هذه المرحلة مرحلة المناغاة ، فينطق بصوت لين يسبق عادة بأحد

الأصوات الساكنة التى تشبه أصوات اللين ، مثل « لا » « نا » ، ولكن هـذه الأصوات إذا قورنت بمثيلها من أصوات الكبار ظهر بعض الفرق ؛ لأن اتساع فم الطفل فى هذه المرحلة لا يزال بحاجة إلى بعض النمو ليستطيع النطق بصوت « لا » ، كما ينطق بها الكبار .

فطول الشدق حين يولد الطفل حوالى ٤٥ مليمتراً ، ثم تزيد نسبة الطول إلى ٦٠ مليمتراً فى الشهر الثالث ، وإلى ٧٥ مليمتراً فى آخر العام الأول ثم ينمو بعد ذلك طول الشدق نمواً بطيئاً جداً ؛ لأن طول الشدق عند طفل فى سن الخامسة هو نفس الطول عند الكبار ، لأنه فى الرجال حوالى ٩٩ مليمتراً وفى النساء حوالى ٩٣ مليمتراً .

لهـذا اختلفت أصوات أطفالنا عن أصواتنا بعض الاختلاف فى السنين الأولى من حياتهم . بل حتى حين ينطقون ببعض أصوات تشبه أصواتنا ، نلحظ اختلافهم عنا فى عملية النطق ، من حيث وضع اللسان من الفم .

ويبدأ الطفل عادة فى نهاية العام الأول بتقليد أصوات الكبار حوله تقليداً ناقصاً بطبيعة الحال . وهنا يبدأ المرحلة التى تعنينا فى بحث أصوات الأطفال اللغوية .

ورغم أن المحدثين من علماء الأصوات قد أجمعوا على أن الطفل يبدأ النطق بما يسهل عليه من الأصوات ، قد اختلفوا بعض الشىء فى ترتيب الأصوات اللغوية ، من حيث سهولتها على الطفل . على أنهم جميعاً قد اعتبروا الأصوات الشفوية كالباء والميم من أوائل الأصوات التى يستطيع الطفل النطق بها ، وعللوا هذا بأن الطفل يرى حركة الشفتين حين يسمع هذه الأصوات من أمه أو أبيه !

ولـكن هذه العلة تستلزم مقدرة عقلية أكبر مما يمكن أن تكون عنـد الطفل فى مثل هذه المرحلة. لأن ربط رؤية الشفتين بسماع الأصوات الشفوية يحتاج إلى عملية عقلية لا يصل إليها الطفل إلا فى مرحلة متأخرة . هـذا إلى أن انتباه الطفل فى هذه المرحلة يتجه عادة إلى عينى أمه أكثر من الاتجاه إلى حركات شفتيها . وليس ببعيد أن الطفل الذى يولد أعمى لايبصر ، قد يبدأ النطق أيضاً بالأصوات الشفوية .

فالسر فى البدء بالنطق بهذه الأصوات ، هو أن عضلات النطق بها ، هى نفس العضلات التى يستخدمها فى الرضاعة .

ثم يتدرج الطفل فى النطق بالأصوات الصعبة ، التى منها مايستحيل عليه النطق به قبل أن يبدأ أكل أطعمة أكثر صلابة من اللبن .

ولا يكاد ينتهى العام الأول فى نمو الطفل حتى يكون قد مهر فى تكرير مقاطع متماثلة مثل (دَ دَ دَ) . وتكرير المقاطع مسلاة للطفل ، خير عنده من أية لعبة يمكن أن تهدى إليه . وقد تتضمن تلك المقاطع أصواتا يصعب على الطفل فيما بعد ، النطق بها فى كلمات من لغة أبويه ؛ بل قد تتضمن أصواتا لاوجود لها فى لغة الآباء . ومنشأ تلك الصعوبة فيما بعد هو الفرق بين النطق بالصوت لمجرد اللعب والتسلية ، والنطق به قصداً ، فى موضع خاص من الكلمة مكتنفاً بأصوات خاصة . ولهذا تعرض للطفل صعوبات جمة حين يبدأ المرحلة الإرادية فى تقليد نطق أبويه أو من حوله من الـكبار .

فإذا تحرر الطفل من لغته الخاصة وبدأ تقليد الـكبار حوله استطاع الباحث المدقق أن يعرف فى معظم الحالات السر فيما قد يعرض لنطق الطفل

من نقص فى تقليد لغة أبويه . وهذا النقص فى التقليد يخضع عادة لقواعد تبررها القوانين الصوتية ، وعلاقة الأصوات بعضها ببعض .

١ — فكثير من الأطفال يبدلون الكاف تاء لأن الصوتين يتحدان فى صفتى الهمس والشدة ، ولا فرق بينهما إلا فى المخرج . فانتقال المخرج من أقصى الحنك إلى أدناه يبرر إبدال الكاف تاء ، لأن أقرب أصوات طرف اللسان إلى الكاف ، هى التاء . فقد يقول الطفل المصرى « تلب » فى « كلب » ، والطفل الإنجليزى قد يقول « tat » فى « cat » وهكذا .

والأطفال الذين يميلون إلى إبدال الكاف « تاء » ، يميلون أيضاً إلى قلب « الجيم » التى هى مجهور « الكاف » إلى « دال » التي هى مجهور « التاء » ، فيقولون فى « عجين » « عدين » وفى « جدىّ » « ددى » .

٢ — وصوت « الراء » صوت شاق عسير على معظم الأطفال ، فأحياناً نسمعه منهم « واواً » مثل « رَبَّعْ » قد يقولون « وَبَّعْ » ، وأحياناً نجدها « لاماً » فيقول الطفل فى « ورق » « ولق » ، وأحياناً نسمعها منهم « غيناً » أو مهموس الغين وهو الخاء ، مثل « بابور » قد ينطقون بها « بابوغ » أو « بابوخ » . ولا شك أن الواو واللام أسهل من الراء ، لأنهما لا يحتاجان إلى جهد عضلى كبير ، هذا إلى أن العلاقة الصوتية بين كل من اللام والواو و بين الراء واضحة جلية . لأن كلا من اللام والراء من الأصوات المائعة (liquids) ، التى تشبه أصوات اللين . والواو كما سبق شرح طبيعتها الصوتية ليست فى الحقيقة إلا صوت لين انتقالى ، فعلاقتها بالراء إذن واضحة . فإذا أضيف إلى هذا أن الراء عند الأطفال يغلب أن تكون لهوية ، انضم إلى اشتراك

الراء والواو فى الصفة قربهما فى المخرج ، ولكون الراء عند بعض الأطفال لهوية ، أمكن أيضاً أن يستعيضوا بها بعض الأصوات القريبة من اللهاة كالغين .

٣ — « الذال » ونظيرها المهموس « الثاء » صوتان عسيران على الأطفال وعلى كثير من الكبار أيضاً . فقد تطورت « الذال » من النطق العربى القديم إلى الدال أو الزاى فى لهجات الكلام الحديثة ، كما تطورت الثاء إلى التاء أو السين وقد سبق شرح هذا .

وقد تطورت الذال « th » فى ألسنة أطفال الإنجليز إلى « v » ، وتطورت الثاء « th » إلى « f » ، فيقولون فى « Mother » « Muvver » ويقولون فى « throw » « frow » . هذا ولا تزال بعض اللهجات الإنجليزية تلتزم النطق بالثاء « فاء » ، فيقولون فى : (thank You) (fank You) .

وقد روى مثل هذا التطور فى اللهجات العربية القديمة : [جدث : جدف . ثوم : فوم] ، لأن مثل هذا التطور الصوتى ليس إلا نتيجة انتقال قليل فى المخرج ، لتصادف الأصوات اللثوية أشباهها فى مخرج آخر ، مع احتفاظها بصفات الجهر والهمس أو الشدة والرخاوة .

وفى قليل من الأحيان نرى عكس هذه الظاهرة عند بعض الأطفال المصريين ، إذ يقولون فى « فوق » « ثوق » وفى « فول » « ثول » .

ومثل هؤلاء الأطفال يحاولون هنا المبالغة فى الوضوح السمعى لهذا الصوت ، لأن الأطفال مع ميلهم إلى أيسر السبل يحرصون أيضاً على توضيح الأصوات وزيادتها علواً وارتفاعاً ، ومثل هذا مثل الطفل الذى يقول فى الفعل

« هات » « حات » ، لأن الحاء أوضح فى السمع من الهاء .

٤ — وكثير من الأطفال يقلبون الشين « سيناً » فيقولون « سمس » بدلا من « شمس » ، والسين « فاء » فى مثل « sweet, swing » « fweet, fwing » والعلاقة الصوتية واضحة هنا لا تحتاج إلى عناء فى الكشف عنها .

٥ — الطفل أيضاً فى نطقه يتلمس أيسر الطرق ، ومالا يكلفه جهداً عضلياً ، وهو لهذا لا يميل إلى توالى صوتين أحدهما مجراه الأنف كالميم والنون ، والآخر مجراه الفم كباقى الأصوات . ولهذا يميل إلى جعل مجرى كلا الصوتين المتجاورين إما من الفم فقط ، أو الأنف فقط . لهذا قد نسمع بعض أطفالنا فى المراحل الأولى يقولون فى « تين » « نين » . ففى هذا المثال جهر الطفل أولا بالتاء فأصبحت « دالا » ، ثم جعل مجرى الدال من الأنف فصارت « نوناً » ، إذ لا فرق بين النون والدال إلا فى أن الأولى مجراها من الأنف والثانية من الفم ، أما موضع اللسان مع كل منهما فيكاد يكون متحداً . ويظهر أن الصوت الثانى هو المتفوق دائماً ، أى أنه هو الذى يؤثر فى الأول ، ويقلبه تبعاً له ، لأنه آخر ما يسمع الطفل من أصوات الكلمة ولهذا قد نسمع بعض أطفالنا يقولون فى « موز » « بوس » ، فقد قلبت الميم هنا إلى نظيرها من أصوات الفم وهو « الباء » ، هذا إلى همس الصوت الأخير من الكلمة فأصبحت الزاى « سيناً » .

ومثل هذا يمكن أن يقال حين نسمع طفلا يقول فى « سمك » « بك » ،

فقد بتر أولا المقطع الأول ، ثم قلب الميم إلى نظيرها من أصوات الفم وهى « الباء » .

٦ — وتقليد الأطفال لأصوات الكبار ، قد يعرض له عدة مراحل فى التطور ، تجعل من العسير إلا على عالم بطبيعة الأصوات اللغوية أن يكشف عن سر تطورها ، ومعرفة القاعدة التى خضعت لها فى هذا . ولأضرب مثلا حول طفلة أوشكت على الثالثة من عمرها ، قد نطقت بالكلمات الانجليزية :

smoke , sneeze , smell , snow .

كما يلى بالترتيب :

Poke , teeze , Pell , tow·

فحين نحلل أصوات هذه الأمثلة الأربعة نراها فى الأصل تبدأ بصوت السين ، يليه صوت أنفى . وقد قلب أولا الصوت الأنفى إلى ما يناظره من أصوات الفم : فالميم قلبت « باء » ، والنون « دالا » ، ولكن الباء والدال صوتان مجهوران ، لايناسبان السين المهموسة التى بدأت بها الكلمات الأصلية ، لذلك همست الباء فأصبحت (P) وهمست الدال فصارت (t) ، ثم سقطت السين من كل كلمة من هذه الكلمات . وليس هذا بغريب لأنى سمعت طفلا مصريا لم يناهز الثانية من عمره ، ينادى خادمه المسمى « فتُوح » قائلا « پوح » ، فقد كون من صوتى « الفاء » و « التاء » صوتاً واحداً ، هو الذى يرمز إليه فى اللغات الأوربية بالرمز (P) ، وهو يشرك كلا من الفاء والتاء فى الهمس ، ويشارك الفاء فى المخرج ، لأن كلا منهما شفوى ، ويشارك التاء فى الصفة لأن كلا منهما شديد أو انفجارى .

٧ — سقوط الصوت :

وقد يكون الصوت سهل النطق به مفرداً ، فإذا كان فى مجموعة من الأصوات صعب على الطفل ، فيتخلص منه ، ويسقط الصوت من الكلمة . فكثير من أطفال الإنجليز ينطقون الكلمات :

black, tram, plug.

كما يلى على الترتيب .

back, tam, pug.

ومثل هذا ما قد نسمعه من بعض أطفالنا ، حين يقولون فى « كوره » « أوله » وفى « جرس » « ألس » أو « أغس » وفى « سقف » « سف » .

٨ — بتر المقاطع :

يصعب على الأطفال عادة النطق بمجموعة من المقاطع دفعة واحدة حين يسمعها ممن حوله من الكبار ، ولهذا نلحظ أنه يقتصر على المقاطع الأخيرة منها فربما قال فى « عربجى » « بجى » فقط وفى « أنبوبة » « بوبة » وليس هذا لأن الطفل لايستطيع النطق بسلسلة من المقاطع ، بل السر فى هذا هو ضعف الذاكرة السمعية للطفل ، فلا يدرى كيف يرتب تلك المقاطع كما سمعها ، ولا كيف بدأت ، فيكتفى بالنطق بالمقاطع الأخيرة . والطفل فى مناغاته لنفسه قد ينطق بسلسلة طويلة من المقاطع المتباينة الأصوات ، ولكن نطقه لها حينئذ غير إرادى ، فإذا أريد إليه النطق بمثلها نطقاً إرادياً فيما بعد ، تعثر ، وقصرت ذاكرته السمعية عن النطق بها ، فيكتفى ببعض منها ويبتر من الكلمة مقاطعها الأولى فى غالب الأحيان . وكثير من أطفالنا يقولون فى «شكولاته» « آته »

٩ — التكرار :

ومما نلحظه فى لغة الطفل في المراحل الأولى ، ميله إلى تكرار المقاطع المتماثلة ، مما أدى إلى أن لغة الأطفال قد اشتملت على كثير من كلمات أو عبارات مكررة المقاطع ، مثل : « ننه » « دادا » « ماما » « بابا » « ممّا » .

وليس من الضرورى أن نعزو هذا إلى أن الطفل حينئذ يمر فى نفس الطور الذى مر فيه الإنسان الأول ، وأن نقارن هذه الظاهرة بلغة القبائل الأولية ، وما يشيع فيها من ميل إلى تكرار المقاطع فى كثير من كلماتها ، ليس من الضرورى كل هذا ؛ بل يمكن أن تفسر هذه الظاهرة تفسيراً أبسط ، وهو أن الطفل يلذ له تكرار نفس العمل مرة ومرتين وثلاثاً ، فلا غرابة أن يكرر مقاطع كلماته . فكما يجد لذة فى تكرار حركة رجليه ويديه ، كذلك يسر بتكرار النطق بمقاطع متماثلة . هذا هو السر فيما نلحظه من تكرار فى المقاطع عند الأطفال . وليس بغريب إذن أن نسمع طفلا مصرياً يقول فى : « محمل » « معمع » ، ففضلا عن أنه قد جهر بالحاء فأصبحت « عيناً » لأن الميم التى بعدها صوت مجهور ، قد جعل الكلمة مكونة من مقطعين متماثلين كل المماثلة . وليس بغريب أيضاً أن نسمع بعض أطفالنا يقولون فى : « فول » « لول » وفى « فيل » « ليل » .

١٠ — نغمه الكلام : (Intonation)

يستطيع الطفل منذ الشهور الأولى أن يميز بين نغمة التدليل ونغمة الزجر وينمو هذا الاستعداد مع الطفل ، فيسترعى انتباهه نغمة الكلام وموسيقاه ،

أكثر مما يسترعى انتباهه ما اشتمل الكلام عليه من كلمات ومعان . ولهذا نلحظ كثيراً من الأطفال ، فيما بعد ، يتفاخرون بأنهم يستطيعون الكلام بالإنجليزية مثلا ثم لانسمع منهم إلا نغمة النطق فى كلام الإنجليز .

— ٢ —

طريق الصواب

يحاول الطفل محاولات عدة للوصول بنطقه إلى النطق الصحيح ، كما ينطق من حوله من الكبار . وقد يمرن الطفل نفسه فى بعض خلواته الذاتية على النطق بمجموعة من الأصوات ، لم يحسن النطق بها أمام أبيه أو أمه .

وهناك احتمالان فى نطق الأطفال للأصوات :

١ — أحدهما أن يشعر الطفل بالنطق الصحيح للأصوات ، ولكنه لايجد عضلات نطقه مطاوعة له ، وحينئذ يظل النقص فى تقليده للأصوات مدة أخرى ، خلالها يأبى على الكبار أن يقلدوا نطقه الناقص ، ويريدهم على النطق الصحيح الذى يشعر به بأذنيه وإن كان لايحسنه بلسانه . فاذا قالت له أمه « عدين » وهى تريد « عجين » رفض قبول هذا النطق ، وحاول تصحيحه لها . ومع هذا فيظل هو يقول : « عدين » حتى تكمل عضلات نطقه ، وتمرن المران الكافى ، فيحسن القول كالكبار .

٢ — والآخر أن يكون السر فى نقص تقليد الطفل هو عدم استقرار عضلات سمعه . وحينئذ يقلد مايسمع تقليداً ناقصاً . ومصدر هذا النقص هو السمع لا عضلات النطق . وخير وسيلة فى مثل هذه الحالة أن يترك الطفل

حتى يستقر سمعه فيصحح هو نفسه الخطأ فيما بعد .

وطريق النطق بالصواب عند الأطفال ليس مستقيما فى كثير من الأحيان ، أى أن الطفل حين يحاول إصلاح خطئه لا ينجح دائماً من الشوط الأول ، بل قد يزل زللا آخر . ولهذا قد نسمع بعض الأطفال يقلدون كلمة من الكلمات تقليداً ناقصاً ، فإذا مر عليهم أسابيع سمعنا نفس الكلمة تتخذ فى أفواههم شكلا آخر قبل أن يصل بها إلى النطق الصحيح .

وقد روى بعض الآباء من الإنجليز أن ولده قد مر فى مراحل عدة قبل أن يستطيع النطق بكلمة « please » نطقاً صحيحاً . فقد نطق بها أولا « bi » ثم « bli » ثم « Pi:z » وغير ذلك من الصور قبل أن يصل إلى النطق الصحيح .

كما روى بعض الآباء من الفرنسيين أن طفله نطق بكلمة « merci » أولا « mèni » ثم « Pèti » ثم « méti » ثم « mèsi » قبل أن يستطيع النطق بها نطقاً صحيحاً .

وليس بغريب لهذا أن نسمع أن ذلك الطفل المصرى الذى أشرنا إليه آنفاً ، قد نطق اسم خادمه « فتوح » قائلا أولا « پوح » ثم « بتوح » قبل أن يستطيع النطق باسم خادمه نطقاً صحيحاً .

وقد مر نطق نفس هذا الطفل فى مراحل مختلفة حينما حاول تقليد الكلمات الآتية : حلاوة — موز — افتح .

فقد قال فى الأولى : [« آلة » ثم « حالة » ثم « حلاوة »] .

وقال فى الثانية : [« بيس » ثم « بوس » ثم « موز »] .

وقال الثالثة : [« اتسح » ثم « ابتح » ثم « افتح »] .

وفى كل صورة من هذه الصور يستطيع عالم الأصوات اللغوية أن يفسرها تفسيراً علمياً ، وأن يجد ما يبرر مثل هذا النطق فى القوانين الصوتية .

(٣)

صياغة كلمات من مناغاة الأطفال

يستلقى الطفل فى سريره هادئاً مطمئناً فيبدأ فى تحريك يديه ورجليه ، بينما تصدر منه تلك الأصوات الفطرية التى نسميها مناغاة . وتكاد تنحصر تلك الأصوات فى صوتى الشفة [الميم والباء] ، وصوت طرف اللسان الذى نسميه بالدال هو ونظيره المهموس « التاء » ، مضافاً إلى كل هذا صوت النون ومعظم أصوات اللين . فهذه هى أحب الأصوات عند الطفل فى مراحله الأولى ، يكررها ويتسلى بها ، دون أن يربط بينها و بين أى معنى من المعانى . فالطفل يبدأ المناغاة واللعب بلسانه وشفتيه ، دون أن يكون له فى أول الأمر مقصد يهدف إليه بل يصدر كل هذا عنه فى صورة غرزية ، ولمجرد التسلية واللهو . فمثله فى تحريك لسانه وشفتيه فى هـذه المرحلة ، كمثله فى تحريك عضلاته الأخرى كاليدين والرجلين .

ثم لا يلبث أن يربط بين تصرف الكبار حوله ، و بين تلك الأصوات التى تصدر منه . وهو فى مناغاته يندر أن يجمع بين صوتين ساكنين ، ولكنه عادة ينطق بصوت ساكن من الأصوات السابقة و يضيف إليه صوت لين .

وبذا يكوّن مقطعاً بسيطاً مثل (da, ba, ma) . ويلذ للطفل تكرار أمثال تلك المقاطع فتسمع منه أحياناً . : (bobo, mama, nene) الخ .

وقد يبدأ المقطع بصوت لين ، كما قد ينتهى مقطعه بصوت لين أيضاً . فنى بعض الأحيان نسمع منه (amama, atete, ababa) الخ .

وفى كل مرة يناغى الطفل نفسه ، يفد إليه أحد الكبار حوله مستمتعاً بأصوات الطفل ، فرحاً مسروراً بمناغاته ، فلا يلبث الطفل أن يربط بين أحد أصواته وبين شخص معين ، ممن يعيشون حوله كالأم أو المربية ، وهنا يخيل للكبار أن الطفل يدعوهم ، ويخلع عليهم اسماً من اختراعه ، لأنهم تعودوا ألا ينطقوا هم أنفسهم بشىء إلا حين يكون له معنى من المعانى . فيحملون أصوات الطفل معانى من اختراعهم . فإذا نطق الطفل بالمقطع (ma) أو كرره فأصبح (mama) أو (amama) ، وصادف أن جاءته حينئذ أمه أو مربيته فى أثناء تلك المناغاة ، ربط هذا الطفل بين تلك الأصوات وبين مجىء أمه أو مربيته . وقد تحمل الأم أو المربية تلك الأصوات معنى من المعانى ، كأن تظن أن الطفل يسميها (ma) أو (mama) ، فتملكها نشوة السرور ، وتعيد على سمع الطفل أصواته مشيرة إلى نفسها ، رغبة منها فى أن يتعرف الطفل عليها ويدعوها بهذا الاسم المحبب إليها ، وأن تكون هى أول إنسان يتعلق به الطفل فى بيئتها .

وقد ترتب على هذا أن لاحظ المحدثون وجوه شبه بين كلمات خاصة فى كل لغات العالم . ولا تدل تلك الكلمات على تفرع اللغات من أصل واحد ، أو أن بعضها قد استعار تلك الكلمات من البعض الآخر ؛ ولكن الذى تدل

عليه هو أن الطفل فى كل العالم قد آثر المناغاة بأصوات خاصة ، نطق بها نطقاً غرزياً ، وأن الكبار فى كل الشعوب هم الذين وضعوا لتلك الأصوات معانى خاصة ، وحملوها مالم يقصده الطفل .

ففى جميع لغات العالم كلمات ، بسيطة المعنى ، عريقة النشوء ، يمكن إرجاعها جميعاً إلى الأصوات الفطرية التى تصدر من الطفل فى مراحله الأولى . فمن أصوات « الميم والباء والنون والدال والتاء » ، تلك الأصوات المحببة عند الطفل فى مناغاته ، نشأت تلك الكلمات المشتركة بين لغات البشر ، حين كون الطفل منها مقاطع متحركة ، ثم كرر تلك المقاطع ، فنسب إليها الكبار حوله من المعانى ماشاءت لهم رغباتهم . فمعانى تلك الكلمات من وضع الكبار ولكن أصواتها من عبث الأطفال ولهوهم .

على أن تلك الأصوات البسيطة ، تتبع فيما بعد النسج الخاص للكلمة فى كل لغة . فأحياناً يصيبها زيادة فى أصواتها ، كأن يضاف إليها صوت الراء ، وهو ماشاع فى الفصيلة الهندية الأوربيه ، متبعة فى كل حالة النسج الخاص للكلمات فى كل لغة من لغات هذه الفصيلة .

وأول ما يستلفت نظر الطفل فى هذه المرحلة ، هو منظر الأم والمربية والأب . والطفل يجد أيضاً لذة ومتعة فى ثدى أمه ، وفى طعامه وشرابه ، ومشيه ونومه ، إلى غير ذلك من الأحداث التى تترك أثراً قوياً فى نفس الطفل . فهو لهذا يبدأ بالمناغاة من أجل أمه وأبيه ، أو رغبة منه فى طعام أو شراب أو نوم . وقد أدى هذا إلى أن الكلمات التى تعبر عن مثل هذه المعانى فى لغات البشر ، قد اشتركت فى أصولها أو عنصرها الأساسى ، لأنها جميعاً نتيجة

مناغاة الأطفال ، وهى طبيعية فيهم ، وتكاد تنحصر فى أصوات خاصة هى : الميم . الباء . النون . الدال . التاء .

وحين نستعرض الكلمات التى تعبر عن الأمومة فى كل لغات البشر ، نجد عنصرها الأساسى فى غالب الأحيان هو صوت الميم ، وفى بعض الأحيان الباء ، بل قد يكون النون أيضاً . ففى الانجليزية « mother » والفرنسية « mére » والعربية أم . وفى اللغات السلافية نجد الباء هى العنصر الأساسى للكلمات التى تعبر عن الأمومة . وفى السنسكريتية نجد « nana » معناها الأم . ومثل هذا ما شاع فى بعض البيئات المصرية ، أمثال « ne:na » ، « anna » التى جاءت الينا من التركية .

والكلمات التى تدل على الأبوة تكاد تشترك فى عنصر أساسى بين لغات البشر وهو « الباء » أو مهموسها « p » ، مثل « baba » ، «papa» التى منها جاءت الإنجليزية « father » ، والفرنسية « pére » . فقد تطورت الباء المهموسة إلى فاء فى الكلمات الانجليزية وهو أمر تبرره القوانين الصوتية . وكذلك نرى العربية والعبرية والسريانية تحتفظ بالباء كعنصر أساسى للكلمات التى تعبر عن الأبوة . وقد يكون العنصر الأساسى فى معنى الأبوة صوتاً آخر مثل الدال فى « dada » الانجليزية . وقد استغل هذا الصوت فى لغة كلامنا ، إذ منه جاءت الكلمة «dada» التى تعبر عن المربية . و بعض اللغات يجعل العنصر الأساسى لمعنى المربية « الميم » ، فنسمع فى الألمانية والسويدية « amme » بمعنى المربية ، كما نسمع شيئاً قريباً من هذا فى بعض البيئات عندنا .

وكلمات الأطفال للتعبير عن الطعام والشراب ، وثدى الأم ، والنوم وكل ما يلذ له يكاد ينحصر عنصرها الأساسى فى تلك الأصوات التى أشرت إليها آنفاً . فى لغة الكلام عندنا نسمع أحياناً « mamma » ، « nenna » ، tata . . الخ .

ويدهش الكبار أحياناً حين يخلط الطفل بين معانى تلك الكلمات فيقول « baba » ، حين يراد منه أن يقول « mama » ، حتى تكمل مرحلة خاصة فى نمو الطفل عندها ترسخ المعانى التى وضعت لأصواته .

هذا هو الطور الأول لنشوء مثل هذه الكلمات ، أما الآن فقد استقرت الشعوب على تسمية الأب والأم باسم خاص لا يسمح بغيره . فإذا نطق الطفل فى مصر بمثل « mama » أمام أبيه ، حاول الكبار حوله تصحيح نطقه ، ليعودوه ما تعودوا ، حتى ينشأ الطفل فى كل بيئة لغوية ، ملقباً الأب أباً ، والأم أماً . لأن اللغات الآن قد استقرت على أمر خاص يعلمه الطفل ، ولا ينساق الكبار مع طبيعته محاولين وضع معان جديدة لأصواته .

وقد تستعير بعض اللغات من اللغات الأخرى كلماتها التى تدل على الأمومة أو الأبوة ، رغبة فى تقليد شعب ناهض ، أصاب حظاً كبيراً من المدنية والرقى .

ويزعم بعض الكبار أن الطفل عادة يعرف أباه قبل أن يعرف أمه ، لمجرد أنهم سمعوه يقول « baba » قبل قوله « mama » . والحقيقة أن الأطفال يختلفون فى البدء بصوت خاص فى مناغاتهم ، فمنهم من يبدأ بالباء ومنهم من يبدأ بالميم . فاذا حاول طفل من النوع الأول أن يلقب أمه baba ، أنكرت عليه هذا ولم تتقبله منه ، ولا تزال به حتى ينطق « mama » ، لأنها لم تألف تسمية الأم بمقاطع مثل « baba » .

الفصل التاسع

عوامل تطور الأصوات اللغوية

لا نريد أن نعرض هنا لما قد يصيب أصوات اللغة من تطور نتيجة انتقال اللغة من بيئتها، واتصالها بلغة أخرى، وما قد يكون بين اللغتين من صراع، ولا إلى ما قد يصيب أصوات اللغة، نتيجة نزوح شعب أجنبي إلى بيئتها، فتتأثر أصوات تلك اللغة بأصوات لغة الغازين أو النازحين؛ لا نريد أن نعرض لمثل هذه البحوث، لأنها ستخرجنا عن الغرض المقصود من هذا الكتاب. وإنما نهدف فى هـذا الفصل إلى الحديث عن سر تلك الظاهرة التى نلحظها، من فرق بين لغـة السلف والخلف ولم تتغير بيئة اللغة، أو ينزح إليها غير أهلها. على أننا، حتى فى هذا، لن نعرض هنا إلا إلى التطور الصوتى، تاركين تطور القواعد النحوية، وتطور الدلالة بين معانى الكلمات، للبحوث المستقبلة.

يشير الباحثون عادة إلى اللغة، وتطورها على مرور الزمن، بأن اللغة كائن حى، يخضع للتطور والتغير من جيل إلى آخر. فاللغة دائمة التطور مهما أحيطت بسياج من الحرص عليها، والمحافظة على خصائصها. لأن اللغـة ليست فى الحقيقة إلا عادات صوتيـة، تؤديها عضلات خاصة، ويتوارثها الخلف عن السلف. غير أن تلك العضلات لا تؤدى تلك العادات الصوتية،

بصورة واحدة فى كل مرة ؛ بل قد يلحظ عالم الأصوات بعض الفروق الدقيقة بين نطق أبناء اللغة الواحدة ، فى البيئة الواحدة .

وقد أكد لنا المحدثون أنه ليس بين أبناء اللغة الواحدة اثنان ينطقان نطقاً متماثلا فى كل الصفات . بل إن المرء الواحد قد ينطق الصوت الواحد من لغته ، نطقين متباينين فى ظروف متباينة ، وقد تدق أمثال تلك الفروق ، حتى على أصح الآذان انتباهاً ، وأكثرها ملاحظة . فإذا تراكمت تلك الفروق الدقيقة ، وتبلورت مع مرور الزمن ، أصبحت من الوضوح بحيث لا تدع مجالا للشك فى أن لغة الخلف تغاير لغة السلف فى أصواتها بعض المغايرة .

وقد يبدو التطور الصوتى بين لغة الخلف والسلف فى بعض الأحيان ضئيلا . وذلك لأن الوسيلة التى لدينا للكشف عن خصائص لغة الأجداد ، هى الكتابة ، وما سجل من كلام السلف . ولكن الكتابة وسيلة ناقصة للتعبير عن اللغات ، لهذا لا تظهر لنا الكتابة القديمة كل الخصائص الصوتية فى لغة القدماء . وستكون مهمة اللغويين فى المستقبل البعيد أيسر ، ونتائجهم أدق ، حين يبحثون فى التطور الصوتى للغة ، لأنهم سيجدون أمامهم اسطوانات وأشرطة سجلت عليها الكلمات تسجيلا صوتياً دقيقاً ، وحينئذ ستكون نظرياتهم مؤيدة بأدلة لا مجال للطعن فيها .

أما ما أثاره المحدثون من نظريات حول التطور الصوتى للغة ، فهو أكبر من أن يستوعب هنا . ولهذا سنكتفى بالإشارة إلى كل منها ، موضحين نواحى القوة والضعف فيها .

ومن المحدثين من عزوا التغير الصوتى فى اللغة إلى سبب واحد أساسى ،

تشترك فيه جميع اللغات . ولكن الأكثرين يرجحون أن عدة أسباب قد اشتركت فى نشوء هذا التغير ، ومن الصعب أن نؤكد أى هذه الأسباب كان العامل الأساسى فى كل تطور من التطورات .

(١)

اختلاف أعضاء النطق

يزعم بعض العلماء أن تغير الأصوات من جيل إلى جيل ، ليس إلا نتيجة تطور عضلى فى أعضاء النطق . فقد تبع الاختلاف فى تكون أعضاء النطق ، تغير فى الأصوات . ومثل هذه النظرية ، على ما بها من جاذبية وطرافة ، لم يستطع أحد من علماء التشريح البرهنة عليها . بل لقد برهن معظمهم على أن أعضاء النطق عند الإنسان ، تتحد فى جميع تفاصيلها ، من وجهة نظر علم التشريح . وقد برهن بعضهم على أن حنجرة أشهر المغنين لا تمتاز عن حنجرة الرجل العادى من هذه الناحية . والفرق بين المغنى وغيره ، أن الأول يملك زمام تنفسه ، ويسيطر على ما يندفع من الرئتين من هواء سيطرة تامة . ومثله فى هذا مثل صاحب الخط الجميل ، لا فرق بين عضلات يديه من الناحية التشريحية وبين عضلات يدى أى رجل عادى ، ولكن سيطرة صاحب الخط الجميل على حركات أصابعه سيطرة تامة ، هى مصدر جمال خطه . وكذلك الراقصة الماهرة لا فرق بين تركيب أعضاء جسمها ، وبين أية امرأة أخرى ، ولكن الراقصة تستطيع السيطرة على حركات جسمها سيطرة لا يضارعها فيها غيرها من النساء .

ومصدر السيطرة على التنفس ، وضغط الهواء المندفع من الرئتين ، وكذلك مصـدر السيطرة على حركات الأصابع وأعضاء الجسم ، هو فى آخر الأمر المخ . فالأمر إذن ليس مرجعه فى الحقيقة إلا إلى الناحية العقلية أو السيكلوجية.

هذا إلى أنه قد ثبت بالتجربة ، أن مدرس « الفوناتيك » يستطيع أن يعلم تلاميذه ، أى صوت من الأصوات ، فى أية لغة من لغات العالم ، مع شىء من المران والشرح العلمى ، دون أن يصحب عضلات نطق التلاميذ أى تغير فى تكوينها التشريحى .

ولسنا نعنى بتطور الأصوات فى اللغة ، أن القديم منها يفنى فناء كلياً دون أن يترك أثراً له ، وأن أصواتاً جديدة لا وجود لها من قبل تنمو وتنتشر فى الـكلام ، وإنمـا الذى نعنيه هو أن الأصوات القديمة تنتقل من مخارجها ، وتستعمل فى مخارج جديدة ، أو يبطل استعمالها فى مكانها الأصلى .

حقاً إن بعض القبائل الأولية قد اتخذت عادة بترجزء من الشفتين والأسنان ، قصد التجميل والزينة ، مما ترتب عليه أن أصبح يستحيل على المرء فيها النطق ببعض الأصوات ، ولـكن مثل هذا ، لا يقام له وزن فى الحديث عن التطور الطبيعى للأصوات اللغوية .

(٢)

البيئة الجغرافية

من المحدثين من يجعلون للطبيعة الجغرافية لبيئة اللغة أثراً كبيراً فى نوع التطور الذى قد يصيب هذه اللغة، وعلى رأس هؤلاء H. Collitz ، فقد عزا تطور الأصوات الشديدة فى اللغة الألمانية إلى نظائرها الرخوة، للطبيعة الجغرافية فى بعض جهات ألمانيا، وقد أكد فى مقالاته أن الجهات الجبلية تميل لغاتها إلى التخلص من أمثال b. d. g. ، فتهمس أولا، وتصبح على الترتيب p. t. k. ، ثم تقلبْ هذه إلى نظائرها الرخوة [الفاء . الثاء . الهاء] على الترتيب . وقد أشار فى مقالاته إلى أن البيئة الجبلية تتطلب نشاطاً كبيراً فى عملية التنفس، ويتبع هذا الميل بالأصوات من الشدة إلى الرخاوة .

وقد تصدى له (Jespersen) مفنداً هذا الزعم، ومشيراً إلى أن التطور الذى أشار إليه (Collitz) قد حدث أيضاً فى البيئات السهلة، وأنه لا أهمية لنشاط الرئتين فى النطق بالأصوات اللغوية، بل المهم هو ما تقوم به الحنجرة وسائر أعضاء النطق الأخرى .

وإذا كانت أصوات اللغات فى بعض الجهات الجبلية تميل إلى الخشونة كما فى جهات القوقاز، فليس السرُّ فى هذا الطبيعة الجبلية، بل يجب أن يبحث عن سر آخر، لأن كثيراً من الجهات السهلة قد اشتركت أصواتها فى هذه الصفة .

وعلى هذا فمن الصعب الحكم على أثر الطبيعة الجبلية فى أصوات اللغة وتطورها .

أما إذا قيل إن الطبيعة الجغرافية ، لها أثر فى الأخيلة والمعانى ، فهذا مما لا جدال فيه ، ولكنه ليس موضوع بحثنا .

(٣)

الحالة النفسية

بعض العلماء يعزون تطور الأصوات من شدة إلى رخاوة ، أو العكس ، إلى الحالة النفسية التى يكون عليها الشعب . فالشعب حين يميل إلى الدعة والاستقرار ، تميل أصوات لغته إلى الانتقال من الشدة إلى الرخاوة . فإذا اعتز الشعب بقوته وجبروته مال إلى العكس . وأصحاب هذا الرأى يتلمسون أدلة على قولهم من التطور التاريخى الذى أصاب الشعب الألمانى ، وما تبع هذا من تطور فى أصوات اللغة . غير أن مثل هذا ، لا يستحق منا أن نقف عنده أكثر من هذا ، لأن الربط بين أصوات اللغة ، والحالة النفسية عند الشعوب ، لا يجد ما يؤيده فى تاريخ الشعوب الأخرى .

غير أنه قد يستأنس لهذا الرأى بما نعرفه عن اللهجات العربية القديمة وميل البيئات المتحضرة فى جزيرة العرب إلى الأصوات الرخوة ، فى حين أن البيئات البدوية كانت تميل إلى الأصوات الشديدة .

(٤)

نظرية السهولة

تنادى هذه النظرية بأن الإنسان فى نطقه لأصوات لغته ، يميل إلى الاقتصاد فى المجهود العضلى ، وتلمس أسهل السبل ، مع الوصول إلى ما يهدف إليه ، من إبراز المعانى وإيصالها إلى المتحدثين معه . فهو لهذا يميل إلى استبدال السهل من أصوات لغته ، بالصعب الشاق الذى يحتاج إلى مجهود عضلى أكبر. ومثل الإنسان فى هذا ، مثله فى معظم الظواهر الاجتماعية ، يحاول عادة الوصول إلى غرضه عن أقصر الطرق كلما أمكن ذلك . وليس معنى هذا أن هذه النظرية تنطبق على كل الحالات ، وإنما يمكن تطبيقها على كثير من التطورات الصوتية فى اللغة . فإذا وجد الباحث أن التطور الصوتى كان عكسياً ، أى من السهل إلى الصعب — كما وجد فعلا فى بعض الحالات — فعليه أن يبحث عن أسباب أخرى خاصة تبرر هذا التطور . وهو ولا شك سيجدها فى ظروف خاصة باللغة التى قد يحدث فيها هذا النوع من التطور . فليس ينقض هذه النظرية أن نجد أحياناً أصواتاً سهلة ، تطورت إلى أصعب منها فى بعض الحالات .

وممن نادوا بهذه النظرية « Curtius , Whitney » . وقد لاقت هذه النظرية بعض المعارضين ، الذين بنوا كل أدلتهم لدحض هذه النظرية على ما لم يقله أحد من مؤيديها . فقد تصوروا أن مثل هذا التطور يستلزم المواضعة والاتفاق ، وأن للمرء إرادة فى مثل هذا التطور .

والحقيقة أن أنصـار هذه النظرية ، قد أوضحوا لنا بما لا يدع مجالا للبس والإبهام ، أن هذا التطور غير إرادى ، فهو يحـدث دون أن يشعر به المتكلم ، ودون أن يعمد إليه قصداً . فالمرء فى الحقيقة حين ينطق بالصوت السهل بدل الصعب ، يخيل إليه دائمـاً أنه ينطق بالصوت الأصلى دون تغيير فيه . فالعملية إذن لاشعورية ، وهى لهذا بعد تكررها تترك أثراً فى تطور كثير من أصوات اللغات . كما أنها ليست عملية ذات أثر سريع بل تمر فى أطوار من اللغة ، حتى يظهر أثرها واضحاً جلياً بعد أجيال .

حقاً أنه من الصعب فى بعض الأحيان الحـكم على أى الصوتين أسهل أو أصعب ، ولـكن مما لا شك فيه أن الأصوات السا كنة الشبيهة بأصوات اللين كاللام والنون مثلا ، لا تحتاج إلى مجهود عضلى كالذى تحتاجه بعض الأصوت كالظاء والغين . فإذا قيل لنـا إن السين والفاء قد قلبتا فى بعض التطورات اللغوية إلى هاء ، لا نشك لحظة فى أن الصوتين قد قلبا إلى صوت أسهل منهما . وقد حدث هذا التطور فعلا فى بعض اللغات .

هذا ويجب أن ينظر إلى هذه النظرية ، لا على أنها العامل الوحيد فى تطور الأصوات ، بل على أنها قد تـكون أحد العوامل ذات الأثر البين فى التطور الصوتى . فقد سبق أن أشرنا إلى أن التطور الصوتى بصـفة عامة ، ليس إلا نتيجة عدة عوامل مجتمعة .

وقد كان القدماء من مؤلفى اللغة العربية ، يشيرون إلى هذه النظرية فى ثنايا كتبهم ، إشارات مبهمة غامضة ، حين عزوا كثيراً من التطورات الصوتية فى اللغـة العربية ، إلى ما سموه ثقل الصوت أو خفته . فقد نسبوا

الخفة إلى الفتحة والثقل إلى الضمة والـكسرة .

وقد نسبوا الثقل إلى الهمزة ، والـكراهية إلى توالى المتحركات فى الـكلمة الواحدة ، أو توالى الأصوات المتماثلة ، ثم رتبوا على كل هذا ، ظواهر لغوية مشروحة ومعروفة فى كتب النحاة .

وقد يؤيد هـذه النظرية ، ذلك التطور الذى حدث فى أصوات اللغة العربية الرخوة ، كالذال والثاء والظاء ، إذ أصبحت فى لغة الـكلام أصواتاً شديدة ، هى الدال والتاء والضاد . لأنه قد يكون أسهل على المرء وهو يجرى بأقصى سرعته ، أن يصطدم بحائط أمامه ، من أن يحاول الوقوف قبل الحائط بمسافة قصيرة .

وكذلك اللسان قد يسهل عليه الاصطدام بالحنك ، والالتقاء به التقاء محكماً ، ينحبس معه النفس ، وهو ما يكون مع الأصوات الشديدة ، من أن تقف حركته عند مسافة قصيرة من الحنك ، ليـكون بينهما مجرى يتسرب منه الهواء كما يحدث فى الأصوات الرخوة . وليس بغريب لهذا أن نسمع طفلا مصرياً يقول فى « زيت » « ديت » .

وقد حاول بعض العلماء الانتقاص من هـذه النظرية ، لأنها فى رأيهم تنسب إلى الإنسان الـكسل ، مع أنه يزداد نشاطاً على مر الأيام . والحقيقة أن هناك فرقاً بين ما تنادى به النظرية ، من أن الإنسان يميل إلى الاقتصاد فى المجهود العضلى ، و بين الـكسل . لأن الـكسل في العمل لا يؤدى إلى النتيجة المرجوة التى يهدف إليها المرء ، فى حين أن الاقتصاد فى المجهود العضلى قد يؤدى إلى الغرض المنشود عن طريق أقصر .

— ٥ —

نظرية الشيوع

قد نادى بهـــذه النظرية « Vilhelm Thomsen » ، وغيره من المحدثين . وتقرر هذه النظرية أن الأصوات التي يشيع تداولها في الاستعمال ، تكون أكثر تعرضاً للتطور من غيرها .

وقد كان القدماء من علماء العربية يحسون بصحة هذه النظرية وإن لم يحاولوا تطبيقها في تفسير كثير من الظواهر اللغوية . ولـكنهم كانوا يشيرون إلى الفكرة في ثنايا كتبهم ولا سيما في حديثهم عن الترخيم في النداء .

وممن آمن بهـــذه النظرية كل الإيمان وطبقها على اللغة الصينية « O. K. Ziph » في كتابه .

Selected studies of the principle of relative frequency in language .

فالصوت اللغوى إذا شاع استعماله في الـكلام ، كان عرضة لظواهر لغوية ، كان القدماء يسمونها حيناً إبدالا ، وحيناً آخر إدغاماً . هذا وقد يتعرض الصوت الـكثير الشيوع للسقوط من الـكلام .

وقد حاولت في مقال نشر في مجلة كلية الآداب(١) بجامعة فاروق الأول تطبيق نظريتي السهولة والشيوع ، على الأصل الاشتقاقي لما يسمى بحروف العلة في اللغات السامية . وقد جاء في هذا المقال ما نصه « وصلنا فيما قررناه آنفاً

---

(١) المجلد الثاني سنة ١٩٤٤ .

إلى أن اللام والنون والميم تعدّ من الناحية الصوتية أشباهاً لأصوات اللين ، وإلى أن الواو والياء أنصاف لأصوات اللين . فهل كان كل من الواو والياء ، فى الأصل السامى القديم ، أحد الأصوات الثلاثة اللام أو النون أو الميم ؟ » .

ثم جاء فى مقالى هـذا « ولتطبيق نظريتى السهولة والشيوع ، نجد أولا أن الواو والياء من الناحية الصوتية ، أسهل من اللام والنون والميم ، ولـكن الفرق بينهما ليس مما يحتاج إلى جهد عضلى كبير . والذى يمكن أن يكون قد برر الانتقال من النطق باللام أو النون أو الميم ، إلى النطق بالواو أو الياء ، ليس عنصر السهولة وحده ، وإنما يضاف إليه أثر شيوع هذه الأصوات الثلاثة فى اللغة العربية . فعلينا إذن أن نبين نسبة تداول كل من اللام والنون والميم فى الكلام العربى . ولقـد حصرت عدد كل منها فى عشرات من صفحات القرآن الكريم ، الذى لا شك أنه يمثل أصدق الأساليب العربية ، وقد اتخذت هذه الصفحات كنماذج يقاس عليها . ثم استعنت بأهل الرياضة فأجروا لى تلك العملية الرياضية التى تستخدم فى علم الاحصاء ، وفى كثير من العلوم الحديثة ، لتغنينا عن استقراء جميع أفراد الأصوات الساكنة فى القرآن الكريم ، التى تزيد على ثلثمائة ألف من الأصوات . وقد كانت النتيجة التى وصلت إليها أن نسبة شيوع اللام ١٢٧ مرة فى كل ألف من الأصوات الساكنة .. والميم ١٣٤ والنون ١١٢ والهمزة ٧٢ مرة والهاء ٥٦ مرة والواو ٥٢ مرة والتاء ٥٠ مرة والياء ٤٥ والباء ٤٣ مرة والكاف ٤١ مرة وكل من الراء والفاء ٣٨ مرة والعين ٣٧ مرة والقاف ٢٣ مرة وكل من السين والدال ٢٠ مرة والذال ١٨ مرة والجيم ١٦ مرة والحاء ١٥ مرة والخاء ١٠ مرات

والصاد ٨ مرات والشين ٧ مرات والضاد ٦ مرات وكل من الغين والثاء ٥ مرات وكل من الزاى والطاء ٤ مرات والظاء ٣ مرات ..

فنحن نرى من النسب السابقة ، أن اللام والنون والميم تكون مجموعة من الأصوات الساكنة ، هى أكثرها شيوعاً فى اللغة العربية . ولا يبعد أن تكون هذه الظاهرة شائعة فى كل اللغات السامية ، فمن النظرات الخاطفة أثناء قراءتى فى العبرية والسريانية أستطيع أن أتنبأ بهذه النتيجة . إلى أن جاء فى المقال : « نخلص من كل هذا الشرح إلى أن الطور الأول لظاهرة الإعلال هو تحول اللام والنون والميم إلى ياء أو واو . ولسنا نعنى أن كل لام أو نون أو ميم ، قد تحولت إلى ياء أو واو ! لأن معنى هذا أن اللغة يجب أن تكون خالية من اللامات والنونات والميات ، وهو ما يخالف الواقع . فهناك عوامل خاصة ، وظروف لغوية خاصة ، وجدت فى بعض الكلمات دون البعض الآخر ، وفى بعض البيئات دون البعض ، مما أدى إلى حدوث هذا التغير فى بعض الكلمات فقط . وتلك العوامل الخاصة يمكن أن تلخص فى كون الصوت منبوراً ، أو خالياً من النبر ، وفي طول الصوت ، أو قصره ، وغير ذلك من عوامل نجهلها الآن ، لبعد العهد بيننا وبين ذلك العصر الذى تم فيه هذا الانقلاب الصوتى .

وقد يتساءل المرء بعد هذا : هل رويت لنا آثار فى اللغة العربية تؤيد ما نذهب إليه من أن الواو والياء ، كانتا فى الأصل ، لاماً أو نوناً أو ميماً ؟ وللإجابة عن هذا ، يجب البحث والتنقيب فى المطولات من المعاجم العربية ، عن ألفاظ اشترك معناها ، ولم يختلف لفظها إلا فى أننا نجد مكان الياء أو الواو منها ، لاماً أو نوناً أو ميماً .

وإنى فى نظرة عجلى ، عثرت فى قاموس المحيط على ما يقرب من مائتى كلمة تؤيد ما أذهب إليه . وليس من المعقول أن اشتراك المعنى بين كل هذه الكلمات ، كان مجرد مصادفة ، فهى من الكثرة بحيث تدع اللغوى يفكر فى سر هذا الاشتراك ، ويحاول الكشف عنه . وسأكتفى هنا بذكر بعض من الأمثلة التى عثرت عليها .

١ — وشر الخشبة بالمنشار : إذا نشرها بالمنشار .

٢ — الوقص : العيب والنقص .

٣ — اللكز : الوكز .

٤ — وعكه كوعده : دكه ، وفى التراب معكه .

٥ — الضنك : الضيق .

٦ — الدانق : الأحمق ، داق دوقاً : حمق .

٧ — العيس : النوق ، العنس : الناقة .

٨ — جلخ السيل الوادى : ملأه ، جاخ السيل الوادى اقتلع أجرافه .

٩ — غطلت السماء : أطبق دجنها ، والليل التبست ظلمته . غطا الليل : أظلم .

١٠ — فصى الشىء من الشىء يفصيه : فصله .

١١ — رخم الكلام : لان وسهل ، والرخامى الريح اللينة . الرخو : اللين والرخاء : الريح اللينة .

١٢ — دجا الليل : أظلم ، والدجن : الظلمة .

(٦)
مجاورة الأصوات.

سبق أن أشرنا إلى الظواهر اللغوية ، التى قد تعرض للأصوات فيما يسمى بالمماثلة (Assimilation) ، أوالمخالفة (Dissimilation) ونريد هنا أن الدافع الأساسى فى الميل إلى المماثلة أو المخالفة هو الاقتصاد فى الجهد العضلى أثناء النطق . ولا شك أن فناء صوت فى آخر ، تلك الظاهرة التى نسميها بالإدغام ، يترتب عليه دائماً اقتصاد فى الجهد العضلى والوصول بالنطق إلى مرماه من أقصر الطرق . فإدغام الثاء فى التاء فى مثل « لبثّم » ، يوفر علينا انتقال اللسان من مخرج الثاء إلى مخرج التاء ، كما يوفر علينا الجمع بين عمليتين متناقضتين ، وفى الأولى منهما ، نسمع صفير الثاء التى هى من الأصوات الرخوة وفى الثانية نسمع صوتاً انفجارياً للتاء . ووضع اللسان بالنسبة للحنك الأعلى والثنايا ، مختلف فى كلا العمليتين : إذ فى الأولى يترك فراغاً يتسرب منه الهواء وفى الثانية يلتقى بالحنك التقاء محكما ينحبس معه الهواء . ولكننا فى حالة الإدغام نحتاج إلى وضع واحد للسان ، وإلى عملية واحدة . وفى هذا اقتصاد محسوس فى الجهد العضلى .

بل لقد مالت بعض اللهجات العربية القديمة إلى التخلص من توالى الصوتين المتماثلين فى حالة الإدغام ، وأضافت إلى سهولته سهولة أخرى ، بأن قلب أحد المدغمين إلى صوت لين طويل ، أو ما يشبهه ، كما تقدم شرح ذلك فى عملية المخالفة (Dissimilation) .

فظاهرة المماثلة أو المخالفة تهدف دائماً إلى الاقتصاد فى الجهد العضلى ، اقتصاداً غير إرادى ، بل يحدث دون أن يشعر المتكلم بحدوثه ، ودون أن يكون له قصد فيه .

وقد يكون الصوت فى ذاته سهل النطق به وهو مفرد لا يجاور غيره من الأصوات ، فإذا جاور غيره ، أو وجد فى موضع خاص من الكلمة استلزم النطق به فى هذا الموضع الخاص جهداً عضلياً أكبر ، مما يؤدى إلى قلب هذا الصوت إلى صوت آخر . ويمكن إرجاع كثير من التطورات الصوتية فى لهجات الكلام قديمها وحديثها ، إلى الميل إلى الاقتصاد فى الجهد العضلى . فتفخيم الباء فى مثل « بطل » تلك الظاهرة التى نهى عنها القراء والتى شاعت فى لهجات الكلام منذ العهود الإسلامية الأولى ، ليست فى الحقيقة إلا اقتصاداً فى وضع اللسان مع الباء والطاء ، وانسجاما بين صوتى اللين مع الباء والطاء .

وكذلك انقلاب المهموس إلى مجهور لمجاورته لصوت آخر مجهور هو فى الواقع اقتصاد فى عملية الانقباض والانبساط فى المزمار الذى يفتح مع المهموس ، ويضيق مع المجهور ليتذبذب الوتران الصوتيان .

ومثل هذا يمكن أن يقال فى قلب الباء ميما إذا وليها ميم ، كما فى « اركب معنا » لأن الهواء مع الباء يتخذ مجراه من الفم ، ولكن مع الميم يتخذ مجراه من الأنف ، هذا إلى ما فى الباء من صفة الشدة ، فإذا قلبت الباء إلى ميم اقتصدنا جهداً عضلياً ملموساً .

وإذا استعرضنا أمثلة المماثلة التى سبق شرحها ، نستطيع أن نستنبط منها قوانين عامة ، للتطور الصوتى فى اللغة العربية . على أن قلة الأمثلة التى رويت لنا فى القراءات القرآنية ، تجعل تلك القوانين قابلة للنقض فى بعض تفاصيلها ولعل بحوث المستقبل تكفل لنا تلافى مثل هذا النقص .

وتلك القوانيم العامة هى :

١ — إذا التقى صوتان أحدهما مهموس والآخر مجهور، تغير أحدهما ، ليصبح الصوتان إما مهموسين أو مجهورين . فصيغة « افتعل » من الفعل « زاد » هى « ازداد » بدلا من « ازتاد » . والتقاء الثاء بالذال فى مثل « يلهث ذلك » قلب الثاء إلى صوت مجهور وهو الذال ، وهكذا يتم الإدغام فى هذا الموضع . وقد أصبح الصوتان فى كل من المثالين السابقين مجهورين . وكذلك التقاء الدال بالسين فى مثل «عدس» قلب الدال فى النطق العامى ، إلى تاء ، فأصبح الصوتان مهموسين .

٢ — تميل الأصوات العربية فى مجاورتها إلى الانسجام فى صفتى الشدة والرخاوة . فإذا تجاور صوتان ، أحدهما شديد والآخر رخو ، غلب أن تتغير صفة أحدهما ، ليصبح الصوتان شديدين أو رخوين . فإدغام الذال في الدال فى مثل « إذ دخلت جنتك » هو فى الحقيقة جعل الصوتين شديدين . والعكس فى مثل « ولقد ذرأنا » ، لأن الإدغام هنا قد جعل الصوتين رخوين .

٣ — الإنسجام بين صوت الفم وصوت الأنف المتناظرين إذا التقيا .

فالتقاء الباء بالميم ، أو الميم بالباء ، يغلب أن ينتج لنا إما باءين أو ميمين ، فالحالة الأولى مثل « اركب معنا » ، أما الحالة الثانية ، فلم يعترف بها القراء إذ أوجبوا إخفاء الميم مع الباء فقط ، وحذروا من إدغامها فيها رغم وجود هذه الظاهرة فى بعض لهجات الكلام ، فقد نسمع بعض الناس يقولون فى «امبارح» «ابّارح».

٤ — قد يستلزم الانسجام بين الأصوات المتجاورة ، والاقتصاد فى المجهود العضلى حين النطق بها ، انتقال مخرج أحدهما من مكانه . وهنا يجب أن نقسم المخارج الصوتية إلى مخارج كبرى أو مناطق يحدث بينها الانتقال :

(ا) أصوات شفوية كالميم والباء والفاء .

(ب) أصوات لسانية وهذه يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ — المجموعة الكبرى وأفرادها : الذال . الثاء . الظاء . الدال . الضاد التاء . الطاء . اللام . النون . الراء . الزاى . السين . الصاد .

٢ — أصوات وسط الحنك وهى : الجيم والشين .

٣ — أصوات أقصى الحنك وهى الكاف والقاف .

(حـ) أصوات حلقية وهى : الغين. الخاء . العين . الحاء . الهاء . الهمزة.

فالقسم الأول وهو الأصوات الشفوية ، والقسم الأخير وهو الأصوات الحلقية ، لايكاد ينتقل صوت من أصواتهما إلى مخرج آخر فى منطقة أخرى ، ولكن ينتقل غيرها إليها وعلى هذا فتكاد تنحصر عملية انتقال الأصوات من مخرجها فى الأصوات اللسانية ، فمنها قد تنتقل « النون » إلى مخرج « الميم » وذلك إذا وليها باء كما فى « من بعد » ، ومنها قد تنتقل « الثاء » إلى مخرج

« الفاء » ، كما فى [جدث = جدف] . وهـذا النوع من الانتقال يمكن أن يسمى بالانتقال الأمامى .

هذا وقد ينتقل بعض أفراد هذه الأصوات اللسانية ، انتقالا خلفياً ، أى إلى الأصوات الحلقية ، وهو ماحدث فى تطور القاف العربية إلى همزة فى لغـة الـكلام بمصر .

أما انتقال الأصوات اللسانية بعضها إلى بعض فهو الشائع فى اللغة العربية . ونلحظ بصفة عامة أن انتقال الصوت فيها يقتصر على الانتقال من قسم من أقسامها ، إلى مايليه من تلك الأقسام الثلاثة . فبعض أفراد المجموعة الـكبرى قد تنتقل من مخرجها إلى أصوات وسط الحنك ، أو العكس . وبعض أفراد أقصى الحنك ، قد تنتقل من مخرجها إلى أصوات وسط الحنك ، أو العكس .

وانتقال الصوت من المجموعة الـكبرى إلى أصوات وسط الحنك انتقال خلفى ، ولـكن عكسه انتقال أمامى . وكذلك انتقال الصوت من أقصى الحنك إلى وسطه ، انتقال أمامى ، ولـكن عكسه خلفى .

ولا نكاد نلحظ فى الأمثلة القرآنية التى سبق شرحها انتقالا أمامياً إلا فى مثل إدغام « الجيم فى التاء » ، نحو [ذى المعارج تعرج] ، وهو نادر مستقبح عند جمهور القراء . فقـد روى عن أبى عمرو الدانى أنه قال إن إدغام الجيم فى التاء قبيح . والذى يمكن أن يبرر هذا الانتقال هو كسرة « الجيم » ، التى هى صوت لين أمامى ، فهى تجـــذب الصوت السا كن إلى الأمام ، فينتقل مع الـكسرة إلى أول اللسان الذى هو مخرجها أيضاً[1] .

---

(١) أنظر صفحة ٤١ فى معنى الصوت الأمامى بين أصوات اللين .

واللهجات العربية الحديثة لم تفرق بين انتقال أمامى وانتقال خلفى ، فكلاهما ورد فى لهجات الكلام ، بل ربما كان الانتقال الأمامى فيها أكثر. وقد يحدث أن ينتقل الصوت فى لهجات الكلام من أقصى الحنك إلى المجموعة الكبرى ، مثل قلب الكاف إلى التاء ، وهو شائع كثير وقد سبق أن شرحناه ، أما ما روى فى بعض اللهجات العربية القديمة من قلب التاء كافاً ، فى مثل : «طالما عصيكا» ، فهو مشكوك فيه ، ولعل الكاف هى الأصل فى تاء الفاعل ، لأن حركة طرف اللسان أسهل من حركة أقصاه .

لم يبق بعد هذا إلا أن ننبه إلى أن أفراد المجموعة الكبرى هى التى يغلب أن يصيبها التطور ، وتكاد تنحصر فى أفرادها ظواهر الإدغام والإبدال.

وإذا استعرضنا أمثلة الإدغام فى القرآن الكريم كما رواها القراء ، وجدنا سبعة منها تشتمل على انتقال الصوت من مخرجه ، والانتقال فيها جميعاً خلفى ، إذ قد انتقل الصوت من بين أفراد المجموعة الكبرى إلى أصوات وسط الحنك وهذه الأمثلة السبعة هى :

١ — نضجت جلودهم .

٢ — بأربعة شهداء .

٣ — حيث شئتما .

٤ — واشتعل الرأس شيبا .

٥ — لقد جاءكم .

٦ — قد شغفها حباً .

٧ — وإذ جئتم .

والانتقال فى الأمثلة الأولى ، يمكن أن يبرره وجود « الضم » ، الذى هو صوت لين خلفى يميل إلى اجتذاب الصوت الساكن معه إلى الخلف . فكل من « الجيم » فى « جلودهم » و « الشين » في « شهداء » و « الثاء » فى « حيث » و « السين » فى « الرأس » صوت ساكن مشكل بالضم .

أما الانتقال الخلفى فى الأمثلة الثلاثة الأخرى فيعدّ من الناحية الصوتية ظاهرة غريبة ، ولا سيما فى « إذ جئتم » .

(٧)

انتقال النبر

لاحظ المحدثون فى مقارناتهم اللغوية ، وتطور الأصوات ، أن لانتقال موضع النبر فى الكلمة أثراً بيناً فيما قد يصيب أصواتها من تطور . و بمقارنة بعض الكلمات فى الانجليزية الحديثة بما كانت عليه فى قديم الزمن ، لاحظوا أن انتقال النبر فى الكلمة قد أدى إلى انضمارها فى بعض الأحيان . والأثر الذى يحدثه انتقال نبر الكلمة ، انتقالا خلفياً ، يكاد ينحصر فى انكماش الكلمة ، وسقوط مقطعها الأخير ، كله أو بعضه .

فاذا طبقت ملاحظات المحدثين حول انتقال النبر ، على ما أصاب اللغة العربية من سقوط حركات الإعراب فى لهجات الكلام ، استطعنا أن نفسر هذه الظاهرة تفسيراً علمياً مقبولا . فموضع النبر فى الكثرة الغالبة من كلمات اللغة العربية هو المقطع الذى قبل الأخير . فى « يكتبُ » و « مستفهمٌ »

نجد النبر على المقطع [تُ] فى يكتب ، وعلى المقطع [هِ] فى مستفهم .

وقد حدث فى لهجات الكلام أن انتقل النبر إلى المقطع الذى قبله ، إذ أصبح فى الكلمتين السابقتين على [يكْ] فى يكتب ، وعلى [تفْ] فى مستفهم . وترتب على هذا الانتقال أن تخلصت الكلمات من أواخرها ، وبذلك سقطت حركات الإعراب .

غير أننا قد نجد بعض كلمات لم يصبها حين تطورت أى تغير فى موضع النبر ، ومثال ذلك الأفعال الثلاثية الماضية ، مثل [كتب سمع] ، فالضغط فى مثل هذه الكلمات على المقطع الأول ، وهو [كَ] فى المثل الأول ، [سَ] فى المثل الثانى ، سواء نطق بالكلمتين نطقاً فصيحاً أو نطقاً عامياً . وذلك لأن قاعدة النبر التى شرحناها آنفاً[1] لاتتأثر بمثل هذا التغيير فى الأفعال الثلاثية ، ولذا لايختلف موضع النبر فى الفعل الثلاثى موقوفاً عليه أو فى حالة الوصل .

---

(١) أنظر ص ١٠٠

الفصل العاشر

أثر العادات الصوتية فى تعلم اللغات الأجنبية[1]

تتكون عند المتكلمين بأية لغة من اللغات صفات كلامية ، يتميزون بها عن غيرهم من الشعوب . وتقوى تلك الصفات عند الفرد ، وترسخ قدمها كلما تقدمت به السن . فهى فى الأطفال مرنة قابلة للتغير والتشكل ، ولكنها فى الكبار صعبة التغير وإن لم يكن هذا مستحيلا .

وتلك الصفات الكلامية يسميها المحدثون عادات لغوية ، لأنها بعد أن تنتهى مرحلة خاصة فى نمو الطفل ، تصبح عنده ككل العادات المكتسبة ، لا اختيار له فى تكوين أية صفة من تلك الصفات الكلامية . فليس للمرء اختيار فى كيفية النطق بصوت من أصوات لغته ، أو فى كيفية تكوين الجمل فى تلك اللغة ، فالمسألة ليست إلا مجرد تقليد . فقد سمع الأبناء آباءهم فقلدوهم ، كما أخذ الآباء والأجداد عن الأجيال قبلهم . وهكذا تتوارث الأجيال تلك الصفات الكلامية ، دون أن يكون لأى جيل من الأجيال ، اختيار أو إرادة فى تكون المظاهر اللغوية على نحو خاص .

على أنه لو اقتصر الأمر على مجرد التلقى والتقليد ، لأدى هذا إلى أن لغة

---

(١) هـذا الفصل مقتطف من سلسلة محاضرات ألقاها المؤلف : الأولى فى معهد التربية للمعلمين ، والثانية فى دار العلوم ، والثالثة فى كلية الآداب بجامعة فاروق الأول .

الناس فى العصر الحاضر ، تشبه تمام الشبه لغـة أسلافهم فى العصور الغابرة ، ولـكنا نعلم أن هناك اختلافا كبيراً بين لغة السلف والخلف . ومرجع هذا الاختلاف هو التطور المستمر للغات البشر .

فعوامل التطور اللغوى التى سبق أن أشرنا إليها ، يجب أن تضاف إلى الوراثة اللغوية ، لنستطيع تفسير أى مظهر من المظاهر اللغوية .

فالمرء إذن يتكلم وينطق بأصوات خاصة ، لها مميزاتها ، ويكوّن جمله بطريقة خاصة ، لها قواعدها . ويختلف هذا من لغة لأخرى ، وهو لا يشعر شعوراً إرادياً ، ولا يفكر حين الكلام فى كيفية النطق بأصواته ، أو تكوين جمله ، بل يصدر كل هذا عنه دون تكلف أو تعمد . وذلك هو ما سماه القدماء التكلم بالسليقة .

أما الصفات الكلامية التى قد تحتاج إلى تفكير وقصد ، والتى تختلف باختلاف الأفراد فى شعب من الشعوب ، فليست من موضوع بحثنا ، ولا يمكن أن تسمى عادات لغوية . فإذا صبغ أسلوب كاتب من الكتاب بصبغة خاصة ، أو بدا على أحد المتكلمين صفـة خاصة فى كلامه لا يشترك معه فيها أحد من أفراد بيئته ، فمثل هذا يعدّ صفات فردية للمرء اختيار فى تكوينها .

والذى يعنينا هنا ، هو تلك الصفات العامة التى يشترك فيها جميع أفراد بيئة من البيئات اللغوية والتى لا اختيار لهم فى تـكوينها ، بل اكتسبوها اكتساباً ، ونمت عندهم ، فتكونت منها عاداتهم اللغوية . ولا بد من مرور أجيال قبل أن يصيب تلك العادات اللغوية أى نوع من التغير أو التطور .

ومظاهر العادات اللغوية ثلاثة :

١ — بنية الكلمة Morphology

٢ — تكوين الجملة syntax

٣ — الصفات الصوتية Phonology ويعنينا هذا المظهر الثالث ، وهو المظهر الصوتى . وهذا المظهر يكاد يكون أوضح مظهر للعادات اللغوية ، وأكثرها رسوخاً عند الأفراد . فهو أول مايسترعى أسماعنا حين نريد تعلم لغة من اللغات ، وهو آخر ما نستطيع تقليده فى تعلمها . ويتضمن المظهر الصوتى مخارج الأصوات وقد تقدم شرح اختلافها من لغة لأخرى ، وتفاعل المجهورات والمهموسات حين تتوالى فى كلمة واحدة أو كلمتين ، وقد تقدم شرح ما يترتب على مجاورة الأصوات بعضها لبعض من تطور . ومثل هذا التفاعل يكاد يخضع فى كل لغة إلى قانون خاص ، له أثره البين فى تعلم اللغات الأخرى .

كما يتضمن المظهر الصوتى أمراً آخر ، له أثر واضح فى تعلم اللغات ، ويختلف من لغة لأخرى ، ويخضع فى كل منها لقانونه الخاص ، وذلك هو « النبر » الذى شرحناه آنفاً حين أشرنا إلى مواضع النبر فى اللغة العربية . وكذلك يتضمن المظهر الصوتى موسيقى الكلام التى يسميها المحدثون (Intonation).

وللمصريين كسائر الأمم عادات لغوية خاصة بهم . وتلك العادات اللغوية المصرية ، كونتها لغة كلامنا ، التى لقنها الطفل فى مراحل نموه ، وتكلم بها غلاماً فشاباً فرجلا . فهى اللغة التى تكلم بها سليقة ، وهى من أجل ذلك اللغة التى كونت في نطقه وفى كلامه تلك الصفات الكلامية التى يتميز بها المصرى ، والتى جعلت له طابعاً خاصاً ، له أثره البين فى تعلمه أية لغة من اللغات الأخرى .

ورغم تعدد اللهجات المصرية ، فإنها تشترك فى كثير من العادات اللغوية . ولهذا يمكن أن نعد المصريين على العموم أصحاب عادات لغوية ، متميزة عن غيرهم من الشعوب . ولقد تكونت لنا لغة نموذجية ، أخذت تقتحم على اللهجات الإقليمية معاقلها ، وتصرعها واحدة بعد الأخرى . وتلك اللغة استمدت الكثرة الغالبة من مظاهرها ، من اللهجة القاهرية ، أو لهجة المتعلمين فى القاهرة ، لأنها العاصمة التى يتطلع إليها دائماً أبناء الأقاليم ، محاولين تقليد أهليها فى معظم المظاهر الاجتماعية ، ومن بينها لغة الكلام . ومهما يكن من الأمر فاللهجات المصرية ، وعلى رأسها اللهجة القاهرية ، هى التى كونت فينا تلك الظواهر اللغوية التى أصبحت عندنا بمثابة العادات المكتسبة ، لا سلطان لنا عليها ، ولا اختيار لنا فى تكوينها ، بل لقناها تلقيناً ، وأصبحنا نتكلم بها سليقة .

ولم تدرس اللهجات الإقليمية فى مصر دراسة علمية منظمة حتى الآن ، وأرجو ألا يمر زمن طويل قبل أن نرى خريطة لبلادنا ، قسم فيها القطر المصرى إلى مناطق لغوية ، بعد دراسة تلك اللهجات دراسة علمية صحيحة .

فدراستى هنا لما أسمية بالعادات اللغوية فى مصر ، مبنية على اللهجة النموذجية التى انتظمت القاهرة والمدن الكبرى . ولقد تكشفت لى عدة نواح مشوقة فى أثناء دراستى للهجة النموذجية المصرية ، رغم أن دراستى ليست إلا بدءاً فى ميدان من الدراسة طويل ، يجب أن نعنى به فى المعاهد المصرية .

فدراسة اللهجات الحديثة إذا نظر إليها من الناحية الأكاديمية البحتة ، تعدّ من أهم المصادر لدراسة اللهجات العربية القديمة . فاللهجات الحديثة ليست

إلا نتيجة تطور للقديم منها . وقد خضع هذا التطور لظروف البيئة المصرية ، ولغتها التى كانت تنتظم البلاد قبل أن تهاجر إليها اللهجات العربية . وقد كون الصراع الذى قام بين اللهجات العربية الغازية ، واللهجات المغزوة ، النواة الأولى فى عاداتنا اللغوية التى تطورت مع توالى السنين ، حتى أصبحت على الصورة التى نراها الآن . ولكن اللهجات الحديثة قد احتفظت لنا ببعض خصائص اللهجات العربية القديمة ، فلم تستطع يد الزمن أن تبدل منها . وتلك الصفات التي احتفظت بها ستكون لنا خير عون فى الكشف عن خصائص اللهجات العربية القديمة التى تخبط فى روايتها مؤلفو العرب ، بل لم يرووا عنها إلا النادر ، متأثرين بعوامل سياسية واجتماعية .

ومن الناحية العملية البحتة يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن عاداتنا اللغوية الحاضرة ، هى فى الحقيقة مرحلة تاريخية فى لغتنا . وينبغى لهذا أن توصف وصفاً علمياً دقيقاً ، بل وتسجل نماذج منها فوق اسطوانات تحفظ كسجلات تاريخية .

ومن الناحية العملية البحتة أيضاً ، تعدّ عاداتنا اللغوية ، الأساس الذى نبنى عليه تعلم أية لغة من اللغات الأجنبية . وأساتذة التربية فى مصر لن يستطيعوا أن يصفوا لنا الطريقة المثلى لتعلم اللغات الأجنبية ، ما لم يمدهم رجال اللغة بنتائج دراستهم لعاداتنا اللغوية .

فمن الضرورى إذن دراسة عاداتنا اللغوية لتسهل لنا مهمة تعليم اللغات الأجنبية فى مصر . ومعلمونا لايكادون يعرفون شيئاً عنها . والمدرس الآن يتبع طريقة ارتجالية فى إصلاح أخطاء تلاميذه ، معالجاً الخطأ فى كل كلمة أو صوت

على انفراد ، غير مدرك أن هناك قانوناً عاماً ، إذا عرفه وضع أصبعه على السر فى معظم ما يمكن أن يزل فيه تلميذه . فتلاميذنا ينطقون اللغات الأجنبية بل حتى العربية الفصيحة أحياناً ، بعد أن يشكلوها بما يناسب عاداتهم الكلامية التى تأثروا بها فى كل بيئاتهم ، حتى بين جدران المدرسة . والمدرس مصرياً كان أو أجنبياً لا يفطن لسر أخطاء تلاميذه .

ولست بمستطيع هنا التحدث بإسهاب عن الصفات الكلامية التى يتميز بها المصريون ، بل سأكتفى بضرب أمثلة من اللغة الإنجليزية ، شارحاً مظنة الخطأ حين ينطق بها المصرى ، ومبيناً أن مرجع هذا الخطأ ، إنما هو تأثر المصرى بعاداته اللغوية : على أنى فى أمثلتى سأكتفى بشرح الأخطاء الصوتية فى تعلم اللغة الإنجليزية .

وقد التقطت كثيراً من الكلمات التى وردت فى الكتاب المقرر على السنة الثالثة الابتدائية . والذى يسمى Reader One ، وسأشرح هنا نوع الخطأ الذى يمكن أن نسمعه من الطفل المصرى حين ينطق بهذه الكلمات ، والسر فى هذا .

(أولا)

حين نقارن العادات الصوتية فى مصر بعادات اللغة الإنجليزية ، نجد أن الإنجليزية تشتمل على أصوات ساكنة ، لا نظائر لها فى لغة كلامنا . وتلك الأصوات الساكنة هى أول ما يعترض الطفل المصرى من صعوبات فى النطق ببعض الكلمات الإنجليزية . وتلك الأصوات هى :

(P) : وهذا الرمز يشير إلى مهموس الباء . لأن الباء فى كلامنا مجهورة دائماً ، فإذا همست ، أدى همسها إلى ذلك الصوت الإنجليزى الذى يرمز إليه بالرمز (P) . فإذا عرف المدرس هذا ، وحاول أن يعلم تلاميذه كيف يهمس بالباء المصرية ، دون أن يلجأ إلى الاصطلاح العلمى بطبيعة الحال ، أمكنه التغلب على الصعوبة التى تلازم الطفل المصرى فى نطقه الإنجليزية فى جميع مراحل التعلم تقريباً .

(V) : ويرمز هذا إلى مجهور الفاء عندنا . إذ لا فرق بين هذا الصوت الإنجليزى والفاء عندنا ، إلا فى أن الفاء صوت مهموس ، نظيره المجهور هو (V) . فالعملية هنا عكسية ، أى يجب أن يتعلم أطفالنا كيف يجهرون بصوت الفاء فى كلامهم .

(th) هذا الرمز المركب يرمز إلى الصوتين العربيين : الذال والثاء . وقد سبق أن شرحنا أن هذين الصوتين قد تطورا فى لغة الكلام ، إذ انتقل مخرجهما إلى الوراء قليلا . وينطق بهما الآن فى بعض الأحيان زاياً وسيناً ، وهو مايميل إليه الطفل المصرى فى نطقه اللغة الإنجليزية . والتغلب على هذا يخدم لنا غرضين : هما أن يتعلم الطفل كيف ينطق بهذين الصوتين فى العربية الفصحى ، وفى الإنجليزية . ولا فرق بين الذال والثاء إلا فى أن الأولى مجهورة والثانية نظيرها المهموس . فإذا علم الطفل بطريقة علمية ، كيف ينطق بهما نطقاً صحيحاً ، سلم كلامه بالانجليزية من صفة تلازمه مرحلة طويلة فى تعلمها .

(J) : هذا الرمز يشير إلى صوت كبير الشبه بالجيم العربية الفصيحة ، ولهذا يشق على القاهريين ، لأن الجيم العربية المعطشة قد تطورت فى كلامهم

إلى الجيم القاهرية التى سبق شرحها . ومعرفة المدرس لمخرج كل من الصوتين وطريقة النطق لكل ، يسهل عليه مهمة تعليم الأطفال النطق بهذا الصوت . وبهذا يخدم غرضين : تعليمهم النطق بصوت عربى فصيح ، وبصوت انجليزى كثير الشيوع فى اللغة الإنجليزية .

(R) : يضعف تكرار الراء فى اللغة الإنجليزية إلى حد لا تكاد تسمع معه فى معظم لهجاتها . ولهذا تجب التفرقة بين الراء فى كلامنا والراء فى معظم اللهجات الإنجليزية .

(L) : اللام فى كلامنا يغلب أن تكون مرققة لا غلظ فيها ، ولهذا دعت كتب القراءات إلى تغليظها فى مواضع خاصة سبق شرحها[١] . أما اللام الإنجليزية فهى مغلظة إذا كانت متطرفة أو وليها صوت ساكن مثل (field . well) ، ولكنها مرققة فى غير ذلك . ويصعب عادة على الطفل المصرى تغليظ اللام ، بأن يصعد اللسان معها نحو الحنك الأعلى كما فى الأصوات المطبقة .

(ثانياً)

تختلف القواعد التى يخضع لها النبر فى لغة كلامنا عنها فى اللغة الإنجليزية ، وقد أدى هذا إلى زلل الطفل المصرى فى نطق كثير من الكلمات الإنجليزية . فالنبر فى لغة كلامنا موضع من ثلاثة لأنه يقع على المقطع الأخير من الكلمة

---

(١) أنظر صفحة ٦٠ .

إذا انتهت بصوتين ساكنين مثل : [نزلْتْ . فتحْتْ] ، أو كان المقطع الأخير مكوناً من :

صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن

مثل : [كتابْ . رمضانْ] .

فإذا لم يكن المقطع الأخير على هذا النسج ، غلب أن يكون النبر على المقطع الذى قبل الأخير مثل الكثرة الغالبة فى لغة كلامنا . أمثال : [يعلَمْ . يلعبْ . يحاربْ . منزلْ . ملكْ . مجتَهدْ] .

ففى مثل هذه الكلمات نلحظ أن النبر يقع على المقطع الذى قبل الأخير ، وهو فى الكلمات السابقة على الترتيب :

[عَلْ . يلْ . حا . مَنْ . م . تَ] .

ولا بد أن يكون المقطع الذى قبل الأخير حين يقع النبر عليه :

١ — إما مقطعاً ساكناً ، كما فى « يعلَمْ » .

٢ — أو مقطعاً متحركاً ، وصوت اللين فيه طويل كما « يحارب » .

٣ — أو مقطعاً متحركاً ، وصوت اللين فيه قصير ، بشرط ألا يسبق بمقطع آخر متحرك أيضاً ، كما فى : [ملك . مجتهد] .

أما إذا كان المقطع الذى قبل الأخير متحركاً ، وصوت اللين فيه قصير ، وقبله مقطع متحرك أيضاً ، فيكون النبر على المقطع الثالث حين نعدّ المقاطع من الخلف مثل : عنبة . بلحة . عجلة

فالنبر فى هذه الكلمات على المقاطع الآتية بالترتيب :

عَ . بَ . عِ

هذا هو الموضع الثالث للنبر فى لغة الكلام عندنا ، وهو قليل الشيوع نسبياً .

فالنبر عندنا أحد مواضع ثلاثة ولكل شروطه : فهو على المقطع الأخير من الكلمة بشرط أن يكون هذا المقطع أحد النسجين التاليين :

١ — صوت ساكن + صوت لين قصير + صوتان ساكنان .

٢ — صوت ساكن + صوت لين طويل + صوت ساكن .

فإذا لم يكن المقطع الأخير من هذين النسجين ، كان النبر على المقطع الذى قبل الأخير بشرط أن يكون نسجه واحداً من الأحوال الآتية :

١ — صوت ساكن + صوت لين قصير + صوت ساكن .

٢ — صوت ساكن + صوت لين طويل .

٣ — صوت ساكن + صوت لين قصير [غير مسبوق بمثله] .

ولكنا نرى النبر على المقطع الثالث من آخر الكلمة ، حين يكون هذا المقطع والذى بعده من النسج التالى :

صوت ساكن + صوت لين قصير

وعلى هذا فالنبر فى الكلمة المصرية قد يكون على المقطع الأخير بشروط خاصة ، فإذا لم تتوفر هذه الشروط ، كان النبر على المقطع الذى قبل الأخير بشروط خاصة كذلك ، فإذا لم تتوفر هذه كان النبر على المقطع الذى قبله .

ويرمز للنبر فى كتب الفوناتيك برمز خاص ، يوضع عادة على صوت اللين من المقطع المنبور ، ففى الكلمة الانجليزية « Torment » التى يختلف استعمالها اسماً أو فعلا باختلاف موضع النبر ، تكتب حين تكون اسماً « Tórment » ، وحين تكون فعلا « Tormént » .

وقد ورد فى كتاب السنة الثالثة الابتدائية كلمات انجليزية تنتهى بصوتين ساكنين ، ولهذا يميل الطفل المصرى إلى نبر المقطع الأخير منها كما تعود فى عادات لغته الكلامية . فهو ينطق بالكلمات الآتية هكذا :

Youngést , Happiést , Hundréds , Gardenérs

أى أنه يجعل النبر على المقاطع الأخيرة وهى على الترتيب :

ést , ést , réds , nérs

مخالفاً بهذا الموضع الحقيقى للنبر فى هذه الكلمات الانجليزية . والطفل المصرى لا يعدو فى عمله هذا أن تأثر بموضع النبر فى عاداته اللغوية .

(ثالثاً)

يستحيل على نسج الكلمة فى اللهجة المصرية ، أن يبدأ بصوتين ساكنين ، كما يستحيل أن يتوسط نسجها ثلاثة أصوات ساكنة متوالية وأن تنتهى بمثل هذا .

فالكلمة فى لهجة كلامنا تبدأ بصوت ساكن واحد ، ولا يتوسطها أكثر من صوتين ساكنين متواليين ، كما لا تنتهى بأكثر من صوتين ساكنين متواليين أيضاً .

فإذا صادف الطفل المصرى كلمة إنجليزية تبدأ بصوتين ساكنين ، أو يتوسطها ثلاثة أصوات ساكنة متوالية ، تعثر فى النطق بمثل هذه الكلمات ، لأنها تخالف نسج الكلمة فى لغته . ونراه يحاول التغلب على هذا ، بزيادة

فى مقاطع الـكلمة الإنجليزية ، فمثلا قد يقول فى :

child , bread , grandfather , burnt

على الترتيب :

teshild , bered , grandefather , burnet

(رابعاً)

ليس بين مقاطع الـكلمة المصرية مثل النسج التالى :

صوت لين طويل + صوتان ساكنان

ولـكن مثل هذا النسج كثير شائع فى اللغة الإنجليزية . ولهذا يتعثر الطفل المصرى حين يصادف مثل هذا النسج فى كلمة انجليزية . و يحاول الطفل التغلب على هذه الصعوبة بأن يقلل من طول صوت اللين فهو يقول فى :

[ne:md] named — [la:mp] lamp (١)

على الترتيب :

[nemd] — [lamp]

فإذا ولى صوت اللين الطويل ثلاثة أصوات ساكنة ، كانت الصعوبة أكبر كما فى asks [a:sks] . فى مثل هذه الحالة يقلل الطفل المصرى من طول صوت اللين ، ويضيف صوت لين قصير قبل الصوت الساكن الأخير ، وبذلك يزيد مقاطع الـكلمة . فهو يقـــول فى مثل هذه الـكلمة . [askes]

---

(١) الـكلمات التى بين الأقواس مـكتوبة بالرسم الفوناتيـكى .

(خامساً)

التجانس بين الأصوات المجهورة والمهموسة حين تتوالى من ضروريات لغة الكلام عندنا . فإذا اجتمع صوتان أحدهما مجهور ، والآخر مهموس ، مالت ألسنتنا إلى قلب أحد الصوتين بحيث يصبح الصوتان ، إما مهموسين أو مجهورين . وليس من الضرورى أن يتوالى الصوتان فى كلمة واحدة ، بل قد يكون تواليهما فى كلمتين شديدتى الاتصال إحداهما بالأخرى ، ففى مثل [big tree] قد اجتمعت الجيم والتاء فى كلمتين ، والصوت الأول وهو الجيم مجهور ، فى حين أن الثانى وهو التاء مهموس ، لهذا يميل الطفل المصرى فى مثل هذه الحالة ، إلى قلب الأول إلى نظيره المهموس وهو الكاف ، ليصبح الصوتان المتواليان مهموسين .

ولهذا قد نسمع مثل هذه العبارة فى فم الطفل المصرى [bik tree] وهو نوع من التأثر الرجعى الذى سبقت الإشارة إليه . وهو مطرد فى كلامنا نلحظه حتى فى نطقنا لبعض الكلمات العربية أحياناً ، إذ نسمع كثيراً من المصريين ، يقولون فى كلمة « أسباب » « أزباب » ، ويقولون فى « أكبر » « أجبر » . وليس لهذا من سر سوى ميلنا إلى الانسجام ، بين همس الأصوات وجهرها ، بحيث لا يلتقى فى الكلمة إلا مهموسان أو مجهوران . وعلى هذا إذا نظرنا إلى مثل الكلمة الانجليزية Placed التى وردت فى مقرر السنة الثالثة الابتدائية ، نجد أن الطفل المصرى قد يتعثر فيها من نواح عدة :

أولاها : أنه يجهر بالصوت (P) فتصبح (B) .

ثانيتها : أنه يقلل من طول صوت اللين بعد اللام ، لأنه قد وليه صوتان ساكنان .

ثالثتها : أن هذين الصوتين المتواليين ، أولهما مهموس وثانيهما مجهور ، ولذلك يجهر الطفل المصرى بالمهموس .

رابعتها : أنه قد يصعب عليه البدء بصوتين ساكنين :

لهذا كله قد نسمع هذه الكلمة فى ألسنة أبنائنا [Blezd] أو [Belezd] .

* * *

تلك هى أمثلة ، أردت بها إيضاح ما نحن بصدده ، من أنه لابد من معرفة الأساس الذى نبنى عليه تعلمنا للغات الأجنبية ، وهو عاداتنا الصوتية ، والقوانين التى تخضع لها . وفى مدارسنا قد تعالج تلك الأخطاء علاجاً فردياً ، وقد تهمل فيشب عليها المتعلم منا ، فإذا رحل إلى بيئة اللغة الأجنبية ، وبدأ يتحدث أمامهم ، كان موضع السخرية أو الرثاء من أهل اللغة .

ويستطيع المعلم بعد دراسة عاداتنا الصوتية أن يحكم على نوع الخطأ الذى يمكن أن يزل فيه الطفل المصرى بمجرد النظر إلى الكلمة . فإذا كتبت أمامه أية كلمة من أية لغة من لغات العالم ، كتابة فوناتيكية بطبيعة الحال ، استطاع القول فى الحال إن الطفل المصرى حين ينطق بهذه الكلمة يغلب أن يتعثر فى موضع كذا وكذا ، فتصدق نبوءته بعد تجربة النطق بها عند أطفالنا .

هذا وأسهل اللغات على المصرى هى أقربها شبهاً بعاداتنا اللغوية . وكلما

تقاربت العادات اللغوية بين لغتين ، سهل على أهل إحدى هاتين اللغتين ، تعلم الأخرى والنطق بها نطقاً صحيحاً : فيجب إذن للحكم على سهولة تعلمنا إحدى اللغات الأجنبية ، أن نقارن عاداتنا اللغوية بعادات تلك اللغة ، من كل ناحية ، فنزن الفروق بين اللغتين ، من حيث الأصوات ، و بنية الكلمات وتركيب الجمل ، وعلى هذه الأسس فقط يكون الحكم صائباً .

(تم الكتاب)

الفهرس

أهم المراجع العربية

١ — ابن جنى :

(ا) الخصائص .

(ب) سر صناعة الإعراب .

٢ — المبرد : المقتضب .

٣ — سيبويه : الكتاب .

٤ — ابن يعيش : شرح المفصل .

٥ — ابن الجزرى :

(ا) النشر فى القراءات العشر .

(ب) التمهيد .

٦ — أبو عمرو الدانى:

(ا) التيسير فى القراءات السبع .

(ب) جامع البيان فى القراءات السبع .

٧ — ابن الفحام الصقلى : التجويد لبغية المريد .

٨ — ابن بكر بن أحمد حماد .

اتحاف العباد فى معرفة النطق بالضاد .

أهم المراجع الأفرنجية

1) D. C. Miller:
The Science of Musical Sounds.

2) Sir Richard Paget :
Human Speech.

3) W. H. T. Gairdner :
The Phonetics of Arabic.

4) G. Noel - Armfield :
General Phonetics.

5) Leonard Bloomfield :
The Study of Language.

6) Otto Jespersen :
Language. (Its nature, development and origin)

7) B. Dumville :
The Science of Speech.

8) D. Jones :
Outline of English Phonetics.

9) W. Perrett :
Some questions of Phonetic Theory.

10) L. Soames :
Introduction To Phonetics.

11) Henry Sweet :
A Primer of Phonetics.

12) W. D. Whitney :
a) Lauguage and the Study of Language.
b) The Life and Growth of Language.

13) V. E. Negus.
The Mechanism of the Larynx.

14) A. Werner :
Language — Families of Africa.

الخطأ والصواب

صفحة	السطر	الصواب
١١	١	العوامل التى تؤثر
١٧	٤	يستقبلها الصيوان
٢٩	١٠	الصوتين
٣٩	٣	الدرجة
٤١	١٣	أقصى ما يمكن فى صعوده نحو الحنك للنطق بصوت لين .
٤٧	الهامش	صفحة ٥٥
٥٢	١٢	بالحنجرة
٥٧	٣	عن يمينه
٨١	٨	الحاء . سطر ١٦ : مخرجه
٩٧	١٧	والفعل الماضى
١٠٠	٥	أشرنا إليها
١٠٧	١٣	الأخير وما سبقه
١١٥	٧	يجتمع
١٢٦	١٦	الإدغام

back

B